

قصّة
الزير سالم الكبير

أبو ليلى المهلهل الكبير



منشورات الجمل



الزير سالم الكبير

أبو ليلى المهلهل الكبير

منشورات الجمل

قصة الزير سالم الكبير

قصّة الزير سالم الكبير

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

قصة الزير سالم
أبو ليلى المهلهل الكبير

وهي قصة بديعة جرى فيها من الحروب العجيبة والوقائع المهولة المريعة، وأشعار العرب أهل الفضل والأدب، وما كان من كليب وحسان اليماني وجساس بن مرة، وما وقع بينهم من الحروب والأهوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمداً لله، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه، وبعد، فهذه سيرة الكرار والبطل المغوار الذي شاع ذكره في الأقطار وأذل بسيفه كل عنيد وجبار، المهلهل بن ربيعة، صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة، وما جرى له في تلك الأيام مع ملوك الشام وفرسان الصدام، من الحوادث والوقائع التي تطرب القارئ وتلذ السامع. ولكن قبل الشروع في هذه السيرة الغريبة وأخبارها المطربة الغريبة رأينا أن نذكر طرفاً من أخبار العرب، أهل الفضل والأدب إفادةً للمطالعين ونزهة للسامعين، فنقول والله المستعان: إن أصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ولد نزار بن معد بن عدنان، وكان قد ولد لنزار المذكور أربعة أولاد من الذكور كل منهم بالفضل والبأس مشهور، وهم: مضر أنمار وإبار وربيعة وفارس الطرار. ومنهم تشعبت قبائل الأعراب وملأت البراري والهضاب. فمن نسل إباد ملوك التابعة الذين أخبارهم بين الناس شائعة، ومن نسل ربيعة ومضر وإنمار عرف الحجاز ونجد والعراق وسكان القفار. وكانت العرب في تلك الزمان منقسمة إلى قسمين وهما: قيس.ويمن، فكان اليمن هم اليمنيون وباقي العربان هم القيسيون، وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد في البر الأقفر حتى

اشتهرت العشائر والقبائل وظهر الأمير ربيعة وَأخوة مرة وأبناء وائل. وربيعة المذكور هو أبو الزير الفارس المشهور صاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة.

(قال الراوي) وكان ربيعة في ذلك الزمان من جملة ملوك العربان وأخوه مروة من الأمراء والأعيان وكانت منازلهم في تلك الأيام في أطراف بلاد الشام وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما: بكر وتغلب، وولد لربيعة خمسة أولاد مثل الأقمار وهم: كليب الأسد الكرار، وسالم البطل الشهير الملقب بالزير، وعدي ودرعيان وغيرهم من الشجعان، وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الأسود والسباع اسمها أسما وتلقب بضباع. وأما الأمير مرة له عدة أولاد أبطال أمجاد وقد اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس، منهم: همام وسلطان وجساس، وله بنت جميلة فاضلة نبيلة، يقال لها الجليلة، فاتفق في بعض الأيّام أن الأمير مرة دخل على أخيه ربيعة في الخيام وخطاب ابنته ضباع لابنه همام، وخاطبه بهذا الشعر والنظام:

يقول أمير مرة في قصيدة	معانيه حكت درر الجوّار
ربيعة يا أخي اسمع كلامي	أيا قهار فرسان الجبابر
أريد ضباع بنتك يا ربيعة	إلى همام يا فخر الأكابر
ولما ينشئ ابنك كليب	ويركب يا أخي الخيل الضوامر
وتكبر يا ملك بنتي الجليلة	مر فخذها له وزوّج لا تشاور
وهذا يا أخي أقصى مرادي	أيا صدام آساد الكواسر
تبدى له ربيعة ثم قال له	كلامك يا أخي مثل العنابر
تريد ضباع خذها يا مسمى	وزوجها لابنك لا تشاور

ومعها مائة خادم يخدموها ومائة جارية غير السرائر
ومعها مائة حر كالعرائس ومائة قعود مع ميتين جوائر
ومعها محمل الفاخر وأطلس زباد ومسك فايح ودم عاطر
وهمام ابن مرة مثل ابني لغيرك من أناسب أو صاهر
هلم انهض وزوجها بسرعة وافرح فيه واعمل عرس فاخر

فلما فرغ ربيعة من كلامه وشعره ونظامه اعتنقه أخوه وشكره على حسن اهتمامه، ثم باشر القوم بأمر العروس من ذلك اليوم، وعقدوا عقد الأمير همام على ضباع بنت الكرام، كما جرت عادة الملوك العظام، فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح وأطعموا كل آتٍ ورائح وما زالوا في سرور وأفراح وبسط وانشراح فدق طبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة أيام، ثم زفوا ضباع على الأمير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها في الأيام القديمة، حضر فيها كثير من سادات العرب وأهل المناصب والرتب ودخل همام على ضباع وحظي بحسنها وجمالها ونالت منه غاية آمالها لأنها كانت تحبه محبة شديدة وتوده مودة أكيدة، وسوف يظهر لهما ولدان وهما شيبون وشيبان وسيأتي حديثهما بعد الآن.

هذا ما كان من خبر بني قيس المدعوين بالقيسية، ولنتكلم الآن عن حديث اليمنية وما جرى لهم في تلك الأيام من الأمور والأحكام والحروب والأهوال في ميادين القتال فنقول وعلى الله الاتكال:

إنه كان في قديم الزمان في بلاد اليمن ملك عظيم الشان صاحب جند وأعوان وأبطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع

اليماني. ولم يكن له بين الملوك ثاني، وهو أول اليمنية كما كان ربيعة أول القيسية. وكان شديد البأس قوي المراس، طويل القامة عريض الهامة، لا يعرف الحلال من الحرام ولا يحفظ العهد والزمام، وكان يحب النساء الملاح والمزاح منهن في المساء والصباح، ومن أعماله العجيبة واصطلاحاته العجيبة كما ذكر أصحاب الروايات أنه كان في كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك والسادات، وكانت الملوك تخافه وتخشاه وتحسب حسابه وتترضاه وتحمل له الخراج وتعلل له الخاطر والمزاج. وكان عنده من الأبطال والفرسان ألف ألف عنان، وهم عشرة كرات مستعدين للحرب والغارات. وكان يشرب المدام في الليل والنهار، ولا يبالي في الأهوال والأخطار. وكان له وزير عاقل خير، قوي الجنان، اسمه نبهان، قد امتاز على الأقران بفعل الخير والإحسان وكان كثيراً ما ينهى الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان. فاتفق في بعض الأعوام ويوم من الأيام، التقى الملك تبع في نبهان وقال له في الديوان، بحضور الأمراء والأعيان: هل سمعت أيها الوزير، والغاقل الخبير، عن ملك كبير عنده رجال كرجالي أو أموال كعدد أموالي. فقبل الوزير الأرض ووقف في مقام العرض وقال: أعطني الأمان يا ملك الزمان، وأنا أحدثك بأخبار ملوك الأمم أصحاب البطش والهمم وما عندهم من الجيوش والعساكر والمهمات والذخائر.

فقال: قل وعليك الأمان من نوائب الزمان.

فقال: اعلم أيها الملك المعظم أنه لا يوجد مثلك في هذه الأقطار من الملوك الكبار أصحاب الدين والأمصار، ولكن يوجد خارج البحار

عرب من أهل الشجاعة والاقتدار عددهم كثير وجيشهم غفير، يقال لهم بنو قيس وسيدهم اسمه ربيعة، ولهم في الحرب والغارات وقائع مهولة مريعة، وهم من أولاد مضر الأسد الغضنفر، وقد امتلكوا أكثر جهات الأرض في الطول والعرض، وهم أعظم منا وأكثر وأشد بأساً. فلما انتهى الوزير من هذا الكلام وسمعه من حضر في ذلك المقام، اغتاظ الملك وتأثر وكان عليه أشد من ضرب السيف الأبتر، فصاح على الوزير وزعق، وقال له بكلام الحنق: هكذا يا تيس تفضل علي بني قيس؟ وما دام الأمر كذلك لا بد أن أفدهم بفرسان المعارك وأقتل ملكهم ربيعة وأردهم موارد المهالك وأخرب بلادهم وديارهم وأمحو بالسيف آثارهم وأتملك الديار بالقوة والاقتدار. ثم أنشد هذه الأبيات على مسامع الأمراء والسادات:

يقول النبي اليمني المسمى	بحسان فما للقول زورا
ملكت الأرض غصباً واقتداراً	وصرت على ملوك الأرض سورا
وطاعتني الممالك والقبائل	وفرسان المعامع والنورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد	شديد البأس جيِّراً جسورا
وقالوا إنه يدعى ربيعة	أمير قد حوى مدناً ودورا
تولى الأرض في طول وعرض	فكم أخرب وكم شيد قصورا
فقصدي اليوم أغزوه بجيشي	وأترك أرضه قفراً وبورا
أيا نبهان إجمع لي العساكر	فيأتوا فوق خيل كالنسورا
وجهز ألف مركب يا وزيري	وأوسقهن في وسط البحورا
ثلاث شهور أشرع لا تنطول	يكون كل ما قلته حضورا
أسير بهم إلى تلك الأراضي	وأملك القلاع والقصورا

ويغنم عسكري منهم مكاسب وأزوجهم بنات كما البدورا

ويبقى لي الحكم براً وبحراً ويصفى خاطري بعد الكدورا

(قال الراوي) فلما انتهى السبع من شعره ونظامه، وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه، ندم وتكدر الذي أعلمه بهذا الخبر، ولم يعد يمكنه إلا الامتثال وتجهيز الفرسان والأبطال إلى الحرب والقتال، فنزل من الديوان وهو مقهور غضبان، وأمر بدق الطبل والنحاس لاجتماع العساكر وباقي الناس. وكان هذا الطبل يقال له الرضوح وهو من أعظم الطبول وكانت تدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التبايعة العظام وكانت الناس تسمع صوته عن مسافة ثلاثة أيام. وكان الملك حسان إذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه وأينما ذهب يتبعه ولم يزل هذا الطبل في ذلك الزمان يتصل من ملك إلى ملك حتى اتصل إلى الأمير

حسن سيد بني هلال المشهور بالإحسان والأفضال. فلما دقت العبيد الطبل وسمعت قواد الفرسان أقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وسألوه عن سبب دق الطبل الرجوج فحدثهم بذلك الإيراد والمسير إلى تلك البلاد للغزو والجهاد، ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح، ولم تكن إلا مدة قصيرة حتى تجهزت المراكب وتجمعت العساكر من كل جانب، وكان من جملتهم عشرة من ملوك كبار كل ملك يحكم على ألف بطل مغوار. فحضروا إلى أمام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له: نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك. فشكرهم

وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال الجزيل وبكل خير جميل. ثم أمر الوزير بالاستعداد والرحيل على غزوة بني قيس وتلك البلاد، وطلب منه أن يأتي بالعساكر من تحت القصر وهي نازلة إلى البحر ليشاهد أحوالها ويرى صلاحها وأثقالها فامتثل الوزير لما أمر وفعل كما ذكر فانشرح صدر الملك عند رؤية العساكر والجحافل وهي في السلاح الكامل والاستعداد للحرب والقتال وقال:

يقول التبع الملك اليماني ... صفا عيشي وقد طاب فؤادي
أتتني عساكر كالأسد تسري ... ألوف راكبين على جياد
عليهم كل درع من حديد ... له زرد كما عين الجراد
وبهم كل جبار عنيد ... يقال ألف ليث في الطراد
برؤيتهم فقد زاد انشراحي ... وزال الهم عني بابتعادي
أسير بهم لذاك السير حالاً ... وأقتل كل من يطلب عنادي
وأرجع غانماً في طيب عيشٍ ... ولا يبقى لتبع من يعادي
ألا يا عسكر قروا وطيبوا ... على نيل المقاصد والمرادِ
ومني أبشروا فيما تريدون ... مهما تطلبوه بازديادِ

فلما فرغ من شعره ونظمه صرخت الأمراء وأكابر القواد والجيوش والعساكر والأجناد، ودعوا للملك بالنصر وطول العمر وقد استبشروا في غزوة تلك البلاد وأيقنوا بالنجاح وبلوغ المراد. ثم نزلت العساكر والأجناد في المراكب مع الأمراء والقواد، وكان الملك حسان قبل خروجه من الأوطان قد سلم زمام ملك اليمن إلى الصحصاح بن حسان، وهو ملك كبير وفارس شهير كان يميل إليه ويعتمد عليه، فأوصاه أن يجمع له المال في كل عام ويرسله إلى بلاد الشام، ثم نزل مع الوزير في مركب كبير

وأقلعوا من الأوطان، وقصدوا بلاد الحبش والسودان. وعند وصولهم إلى ذلك الجانب ألقوا المراسي ونزلوا إلى البر بالقوارب ونصبوا الخيام والمضارب. وفي الحال أرسل الملك تبع وزيراً اسمه زيد بن عقبة بألف فارس منتخبة ليعلم ابن أخته الرعيني بقدومه إلى تلك الأقطار لأنه كان ملك هاتيك الديار ويأمره بسرعة الحضور وتقديم الذخر إلى الجيش والعسكر. فلما علم الرعيني بذلك الخبر بادر في الحال بالفرسان والأبطال والمهمات الثقال إلى أن التقى به في الصيوان ومن حوله الوزراء والأعيان، فدخل وسلم عليه وقبله بين عينيه وقدم له الذخائر والمهمات لتلك الجهات، فأعلمه بواقعة الحال وأنه قاصد غزو بني قيس وتلك الأطلال. ثم باتوا تلك الليلة في الخيام وفي الصباح أمر الملك العشرة الملوك العظام أن يتأهبوا للرحيل إلى بلاد الشام وأن ينقسموا إلى قسمين، ويتفرقوا إلى فرقتين. فخمسة تسير من اليمين وخمسة من على الشمال، وأوصاهم أنهم كلما أقبلوا إلى مدينة يملكوها في الحال ويقيمون فيها نائباً من سادات الرجال، فأجابوا أمره بالخضوع والامتثال. فعند ذلك دقت الطبول والزمور وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتفع الصياح ولمع السلاح وترتبت الكتائب وسارت المواكب في تلك البراري والسباسب وكانوا كلما وصلوا إلى مدينة أو بلد امتلكوها بحد السيف المهند حتى ملكوا أكثر البلاد وطاعتهم العباد. وما زال تبع يتقدم حتى أقبل إلى مدينة الشام فأحاط بها من جميع الجوانب بالمواكب والكتائب وكان نائب الملك ربيعة في دمشق الشام يدعى زيد بن علام، وكان ربيعة وأخوه مرة في وادي الأنعمين وهو مكان بعيد عن المدينة مسافة يومين، فأرسل

الملك تبع إلى نائب الأمير ربيعة أحد الوزراء العمد يطلب منه الخضوع لأمره وتسليمه.

فلما وصل إليه ودخل عليه وأعلمه بالخبر وما قال تبع وأمره، فأجاب بالسمع والطاعة ونهض مسرعاً في تلك الساعة، وأخذ معه الأموال والذخائر وخرج في جماعة من الأكابر حتى التقى بتبع في الخيام فحياه بالسلام، فترحب به غاية الترحيب وأمر له بالجلوس فجلس بمكان قريب منه. فقال تبع: هل أنت حاكم الشام؟ قال: نعم أيها الملك الهمام. فسأله عن حكم ربيعة، فقال له: ظالم على قومه وكل الرعايا تشكو من ظلمه وتتمنى له الأذى والضرر والموت الأحمر، والحمد لله رب البرية الذي أعاننا بك حتى نتخلص من نير العبودية فسنخدمك خدمة مرضية، ونصير لك من جملة الرعية. وما قوله ذلك لتبع إلا من الخوف والفزع، فتبسم تبع من هذا الكلام وقال أبشر ببلوغ المرام فإنك ستكون نائبي في بلاد الشام وتحمل لي الخراج في كل عام. فقال سمعاً وطاعة يا ملك الزمان وجوهرة هذا الأوان. ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر، فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع، وقال له اذهب الآن وجوه أهل المدينة وباشر في الضيافات والزينة فإننا سنحضر إلى عندك بعد ثلاثة أيام ونتفرج على الشام، ثم نرجع إلى المضارب والخيام. فقال له: أهلاً وسهلاً الأرض أرضك والبلاد بلادك. ثم ودع الملك وسار بمن معه من الأكابر والتجار وأخذ يسعى في أمر الوليمة وقد خامرت معه أهل الشام خوفاً من السبي والهزيمة.

هذا ما جرى لهؤلاء من الأخبار وأما ما كان من ربيعة وبني قيس الأخيار فإنهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع إلى الديار وافتتاحه المدن والأمصار أخذهم القلق والافتكار. وكان قد بلغ ربيعة قول زيد إلى تبع حسان وكيف أنه نسبه إلى الظلم والعدوان، مع أنه كان من أعدل ملوك الزمان. أخذه الغضب والقلق وزاد به الحنق، فجمع أكابر قومه وأخيه مرة ومن يعتمد عليهم من أهل الشجاعة والقدرة وجعل يخاطب الأمراء والسادات بهذه الأبيات:

غنا ربيعة شعراً من ضمايره ... ودمع العيون إلى الوجنات طوفان
يا قومنا اسمعوا وامتثلوا قولي ... أنتم بنو قيس أبطال وشجعان
كنا بخير والسعد يخدمنا ... نقري الضيوف ونكسي كل عريان
والجوخ والخز السّمور يأتي لنا ... من سائر الأرض والملبوس ألوان
جاءنا من البحر ذا التبع يحاربنا ... صعب المراس شديد البطش سلطان
معه رجال عوابس ألف ألف بطل ... من كل درغام قلبه مثل صوان
جاز البلاد وما أمير خالفه ... الكل طاعته القاضي مع الدان
أتى إلينا وما حسب حساب لنا ... منا ومن غيرنا هو ليس فزعان
معاه عسكر كثير ماله عدد ... أبطال حرب وفرسان شجعان
أنا بقيت كبير السن يا عربي ... مالي جلد في اللقا وسط ميدان
مرة أخي بهذا الرأي ساعدني ... همام يا ابن عمي ما كنت كسلان
ما يترك الكأس من يديه ولا ساعة ... إلا بوقت اللقا أو بعض أحيان
كيف العمل ننهزم أو نقابله ... شوروا للصواب إخوتي وخلان

فلما فرغ ربيعة من شعره قالت السادات والفرسان عن فرد لسان: إن هذا الأمر لا يطاق، وعلقم مرّ المذاق، وليس لنا غير الهزيمة فهي أوفر

غنيمة، وإلا حكم سيفه ولاشانا عن بكرة أبينا. وبعد مداولة طويلة وجلسة مستطيلة استقر رأي الجمهور على أن يذهبوا إلى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبوا لأنفسهم الأمان ويقدموا له التحف الحسان، لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة. هذا ما كان من أمر بني قيس، وأما الملك تبع فإنه في اليوم الثالث ركب في وجوه قومه وتوجه إلى مدينة الشام لأجل الزيارة كما تقدم الكلام.

فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والإكرام، وأجلسه في أعز مقام، وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمة، فأحسن إليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على أكابر أهل المدينة، ثم رتب الخراج في كل عام، وبعد ذلك رجع إلى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد على المرام. وأما بنو قيس فإنهم جمعوا التحف الحسان والأموال التي يكل عن وصفها اللسان من عقود وجواهر ومهمات وذخائر وقماش فاخر، وحملوها على مائة جمل وركب ربيعة مع أخيه مرة في مائة بطل وسار معهما جماعة من الأمراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدا في قطع البراري والقفار، حتى وصلوا إلى تلك الديار. وعند وصولهم إلى المضارب نزلوا عن ظهور الجنائب، واجتمعوا بخزندار الملك تبع وكان اسمه ثعلبة ابن الأبشع، فقدموا له التحف الحسان ليقدمها إلى الملك تبع حسان ويعلمه بقدومهم إلى الديار فقدمها الخزندار وأعلم بمجيء القوم في مثل ذلك اليوم، مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ورجليه ويحصلوا على أمانه ويكونوا من جملة خدامه وأعوانه. فتبسم تبع والتفت إلى وزيره نبهان وقال له:

أين ملوك قيس العظام الذين كنت قلت عنهم ما هو كذا وكذا من الكلام، وإني لا أصلح أن أكون من جملة خدامه، وهم قد حضروا الآن لتقبيل أقدامي ليكونوا من جملة أعواني وخدامي؟ فقال الوزير: وقاك الله من كل شر وضير وجعل عاقبة هذا الأمر إلى خير. فبينما هم في الحديث والكلام إذ دخل على الملك أمراء بنو قيس الكرام، فقبلوا الأرض بين يديه ووقفوا على رجليه، فأخذ تبع ينظر إليهم ويتأمل فيهم، فحانت منه التفاتة فنظر الأمير ربيعة واقف في باب الصيوان، وهو مثل الأسد الغضبان. وكان الأمير ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك حسان، لأن نفسه ما كانت تطاوعه على الذل والهوان، فالتفت الملك تبع إلى الترجمان وقال: من يكون هذا الإنسان؟ فإني أراه معجب بنفسه غاية الإعجاب، ولا حاسب لي أدنى حساب. فسأل الترجمان عنه فقالوا: العشمشم سيد بني قيس الأمير ربيعة المعظم.

فلما سمع تبع هذا الخبر، شخر ونخر، وتبدل عيشه بكدر، واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر، ثم ناداه فحضر وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته، فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه. فقال تبع: أأنت سيد بني قيس الكرام؟ فقال نعم أيها البطل الهمام. قال: ولماذا أسأت الأدب واحتقرتني دون باقي أمراء العرب الذين تمثلوا أمامي وقبلوا يدي وأقدامي؟ فتقدم الآن وقبّل رجلي يا مهان وإلا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة بين الأنام.

فقال ربيعة وقد استعظم ذلك الأمر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر لأنه كان من أشرافهم حسباً وأعلاهم نسباً ثم قال:

اعلم يا ملك الزمان بأنني ملك من ملوك العربان، صاحب قدر وشان، وما ذلت نفسي لإنسان، وهذه هي بلادي وملك آبائي وأجدادي، وأنا ما تعديت عليك وما أوصلت أذيتي إليك، بل أنت شنيت علينا الغارة وامتلكت بلادنا وألحقت بنا الخسارة، وذلك بدون سبب من الأسباب، فكفى ما فعلته أيها الملك المهاب وقد بلغت منا قصدك فلا أنت تقبل يدي ولا أنا أقبل يدك. فلما سمع منه هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال، وقال: يا نذل بني قيس ومن هو أذل من التيس، إني ما أتيت من بلادي بهذا الجمع المتزايد إلا لأجعل زمام الدنيا في قبضة ملك واحد. ثم بعد هذا الكلام صاح على الأعوان والخدم بصوت كالرعد في الغمام: يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبر ومن معه من بني قيس الطناجير وقيدوهم في الجنازير. فامتثلوا لأمره في الحال وقيدوا ربيعة وباقي الرجال، وبعد أن قيدوه وأوثقوه أمر الملك بشنقه فشنقوه وهكذا انتهت حياته وانقضت أيامه وساعاته وبقي معلقاً ثلاثة أيام حتى جاء نائبه الأمير زيد إلى الشام فغسله وكفنه ثم واراه التراب ودفنه. ثم جاء في باقي الرجال وأرادوا أن يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الأمير مرة من بين أيدي الفرسان وتقدم إلى عند الملك تبع حسان وقال الأمان يا ملك الزمان، نحن الآن عبيدك وطوع يديك وجميع أمورنا راجعة إليك فاعفوا عنا فقد صرت لنا ملك. ثم إنه بعد هذا الحديث والكلام أشار يخاطبه بهذا الشعر والنظام:

مقالات لمرة في بيوت ... صروف لدهر قد جارت علينا

ألا يا أمير تبع يا مسمى ... أيا ملك الورى في العالمينا

أنا في جيرتك يا فخر قومك ... أجري تشفي الضد فينا

قـتـلـت أخـي ربـيـعـة يـا مـكـنـى وأسـقـيـت الـعـدا والـحـاسـديـنـا
وتـقـتـلـنـي أنـا يـا أمـيـر بـعـده تـهـد رجـالـنـا طـول الـسـنـيـنـا
نـحـن يـا مـلـك حـكـام مـثـلـك عـلـى كـل الـقـبـائـل حـاكـمـيـنـا
فـلـيـس بـواجـب تـهـدم بـيـوتـي ولا هـذه فـعـال الـمـاجـديـنـا
وقـد حـاربـنـا وحـكـمـت فـيـنـا ونحن اليوم في حكمك رضينا
وبـعـد الـيـوم صـرنـا لـك رعـايـا عـلـى طـول الـلـيـالـي والـسـنـيـنـا
وندفع كل عام عشر المال كله فـاحـكـم مـا تـريـد الـيـوم فـيـنـا

(قال الراوي) فلما سمع تبع شعره ونظامه وعرف قصده ومرامه عفى عنه وأعطاه الأمان وكذلك صفح عن باقي الأمراء والأعيان وجعلهم من جملة الرعايا والخدام يدفعون له الخراج في كل عام، وقال لمرة: يا سيد القوم قد صممت أن أتخذ مدينة كرسي مملكتي بعد هذا اليوم فسر أنت بأهلك من هذه الديار وتفرقوا في سائر الأقطار وكونوا لأوامري طائعين ولحكمي خاضعين سامعين.

ثم إنه قسمهم إلى عدة فرق وأقام على كل فرقة ملك من سادات بني قيس الأعيان فجعل الأمير مرة على الفرقة الأولى وأمره أن يسكن مع قومه في نواحي بيروت وبعلبك والبقاع وجعل الأمير عدنان على الفرقة الثانية وأمره أن يقيم في بلاد العراق وتلك المنازل والآفاق. وكان الملك تبع قد شتت بنو قيس بهذه الوسيلة خوفاً من أن يقع في مكيدة أو حيلة، ثم إنه التفت إلى الأمير مرة وباقي السادات وأشار إليهم بهذه الأبيات:

يقول التبع المدعو اليماني أيـا مـرة لـكـم مـنـي الأمـان
ألا يـا قـيـس روحـوا لا تـخـافـوا فـقـد سـدتـم عـلـى أهـل الـزمـان

ربيعة أنت يا مرة بداله   كبير القوم من قاص ودان

وأولادهم لهم موضع أبوهم   وأنت أكبرهم فيهم تعاني

ولكن خلق لا تسكنوها   وكونوا في أمانٍ مدى الزمان

فلما فرغ تبع من كلامه وشعره ونظامه أجابت بنو قيس أمره بالامتثال وتفرقت جموعهم في البراري والتلال، وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الأذى إليهم، لأنهم كانوا في أرغد عيش وأهناه وفي عزٍّ وجاه، كلمتهم بين الناس مسموعة، وروايتهم فوق هام المجد مرفوعة، لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم ملل ولا ضجر، إلى أن أصابتهم البلية وحلت بهم تلك الرزية، فبكوا على تفرق بعضهم البعض وتشتتهم في أقطار الأرض.

ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير في الأوراق هو ما جرى للأربعة إخوة الذين اشتهروا من بني قيس بالحمية والنخوة وذلك أنه كان لزوجة الأمير ربيعة المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور أربعة إخوة من الذكور وهم: جوشن وناجد وجودر والأمير منجد والأسد الغضنفر وكانوا من أجود الناس، قد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس.

فلما رأوا أفعال تبع الشنيعة وكيف أنه قتل صهرهم ربيعة، ساءهم ذلك الأمر وتوقد قلبهم من الغيظ بلهيب الجمر، ولكنهم أخفوا الكمد وأظهروا الصبر والجلد. فحملوا بيوتهم وعيالهم وساقوا غنمهم وجمالهم وجدّوا في قطع البراري والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فنزلوا بقرب صيوان تبع حسنان، فقال لهم: من تكونوا من العربان؟ فقال له ناجد: اعلم أيها السيد الماجد أننا من خيار العرب، أصحاب

الحسب والنسب، وكان الأمير ربيعة متزوجاً بأختنا جميلة وكنا على زمانه في نعمٍ جزيلة. والآن قد أمسينا في ذل وهوان وليس لنا قدر ولا شان وقد قصدناك وأتينا إليك وجعلنا اعتمادنا بعد الله عليك لعلك ترحمنا وترثي لحالنا وتبلغنا غاية آمالنا وتجعلنا من جملة الأعوان والعبيد والغلمان فتستقيم أمورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع وبلوغ الوطن. فأعجبه كلامهم وبلغهم مرامهم وجعلهم من جملة وزرائه وأكابر أمرائه وكان يستشيرهم في أكثر الأوقات ويفضلهم على الرؤساء والسادات، وكانوا يترقبون الفرص ليأخذوا بالثأر ويزيلوا عن قلوبهم الغصص، ولما بلغ تبع الغاية دخل إلى مدينة الشام ونزل بالسراية فطاعته العباد وخضعت له جميع البلاد، وشاع ذكره في الأقطار وتحدث عنه الملوك الكبار واستمر على هذه الحالة مدة ثلاثين سنة تهاديه الملوك الأكاسرة وتهابه الملوك القياصرة.

وكان قد بنى له قصراً مرتفع البنيان مشيد الأركان وجعل أبوابه من الفضة والذهب، ورصع حيطانه بالجواهر والدر المنتخب، فكان من عجائب الزمان وذلك لما فيه من التحف الحسان التي تدهش النواظر وتحير العقول والبصائر.

فاتفق ذات يوم بينما هو جالس في الديوان ومن حوله الأكابر والأعيان، وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتي اشتهرن بالفضل والأدب والحسن والجمال واللطف والكمال، إذ قال بعض الوزراء إنه لا يوجد في هذا الزمان بين بنات العربان في المحاسن والأوصاف البديعة أجمل من الجليلة ابنة أخي ربيعة، وأخذ الوزير يطيب في

أوصافها وآدابها وألطافها، ثم قال في آخر الكلام، إن هذه الصبية التي كأنها البدر التمام مخطوبة لابن عمها الأمير كليب ومراده أن يتزوج بها في هذه الأيام، فهنيئاً لمن كانت هذه زوجته وقرينته وحبيبته.

فلما سمع تبع بذكرها وأنها من أجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب إلى أبيها مرّة كتاباً بالحال يأمره أن يرسل له الجليلة بدون إهمال، لأن مراده أن يتزوج بها ويكون صهره، وبهذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره. ثم ختم الكتاب بهذا الشعر والنظام وبه يتهدده بالانتقام إن لم يمتثل إلى هذا الكلام، وأشار يقول:

يقول التبع الملك اليماني ... ملكت الأرض والسبع البحار
ألا يا غادياً مني لمرة ... على فرس تشابه ريح ساري
بحال وصول مكتوبي إليه ... فأعلمه بحالي وانتظاري
أيا مرة فأرسل لي الجليلة ... بلا إهمال من بين السراري
سمعت بأنها زينة مليحة ... ويخجل حسنها ضوء النهار
وحين سمعت بها طار عقلي ... وقل اليوم مني اصطباري
أريد تكون باكر وسط قصري ... وتتسلطن على كل الجواري
وأرسل جزية السبع المواضي ... خزين في صناديق كبار
واحضر يا ملك مرة عندي ... واخضع لي بذلٍّ وانكسار
وأدخل على الجليلة وسط قصري ... وأتمتع بها وأطفي ناري
وإن كانت كما وصفوا وقالوا ... سأمضي الليل معها مع نهاري
وأعطيك البقاع إلى بعلبك ... وأرفع لك مقاماً في جواري
وإن لم تمتثل قولي وأمري ... تراني جئتكم مثل الضواري
وأمحي جمعكم في حد سيفي ... وأنهب مالكم وأنال ثاري

ثمّ أمر تبع وزيره نبهان أن يركب في جماعة من الفرسان ويقصد تلك القبيلة ويسلم الكتاب إلى مرة ويأتيه بالجليلة. فامتثل أمره وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى تلك الديار، فرأى القوم في سرور وأفراح وشرب مدام وانشراح، لأنهم كانوا مهتمين في تلك الأيام في زواج كليب بالجليلة بدر التمام.

فلما سمع بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع فنهض في الحال واستقبله أحسن استقبال ثم أتى به إلى الخيام، واحترمه غاية الاحترام وأمر الخدام أن يأتوا بسفرة الطعام وآنية المدام، فامتثلوا إلى أمره كما ذكر وبعد أن أكلوا وشربوا ولذوا وطربوا قال الأمير مرة إلى الوزير: اعلم أيها السيد الخطير لقد زاد سرورنا الآن وتزينت بقدومك الأوطان، ثم سأله عن سبب زيارته وما هي غاية حضرته فقال: قد أتيتك بكتاب من تبع ملك الأعارب وبه يطلب ابنتك امرأة له، وأنت تعلم بطش هذا الجبار وفعله، فقد قال المثل: لا تعاند من إذا قال فعل، وأنا والله في غاية الحياء والخجل، وليس لي إرادة بهذا العمل، ولكنني أتيتكم في زي رسول لأعلمك بالخبر اليقين وليس على الرسول إلا البلاغ المبين. ثم أخرج الكتاب وسلمه إياه ففتحه الأمير مرة وقرأه، ولما وقف على حقيقة فحواه انقطعت أمعاه وضل عقله وتاه، لأنه إن أبى وامتنع يقتله الملك تبع، وإن أجابه إلى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه الناس وتزدريه حيث كان قد أنعم بزواج ابنته إلى كليب ابن أخيه. فانهار وحار وأخذ يتأمل في عاقبة هذا العمل فلم يجد سوى الخضوع والامتثال لأوامر تبع في الحال، خوفاً من العواقب

وحلول النوائب، فالتفت إلى الوزير نبهان وقال له أمام الأمراء والأعيان ومن حضر في ذلك المكان: لقد أجبت الملك إلى ما طلب وبلغته من ابنتي غاية الأرب، لأن ليس لنا بعد الله سوى أمره ورضاه، لأنه الملك الأكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف الرفيع والحظ الأوفر، وبعد ثلاثة أيام يكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ونحمله على ظهور الجمال مع باقي الأمتعة والأحمال، وتركب الجليلة في هودجها أمام الفرسان وتذهب أنت معنا إلى عند الملك تبع حسان. فانشرح صدر الوزير بهذا الكلام وأيقن بالنجاح وبلوغ المراد والحصول على الخلوع والأنعام وبات تلك الليلة وهو فرحان.

(قال الراوي): فهذا ما كان من الوزير نبهان، وأما الأمير مرة فإنه استدعى كليب سراً وقص ذلك الحديث عليه وقال: اعلم يا ثمرة فؤادي ومن هو عندي أعز من أولادي أن الضرورة أحوجتني إلى ذلك خوفاً من الوقوع في المهالك، وقد أعلمتك بما جرى وتجدد فما رأيك أيها البطل الأمجد؟ فلما سمع هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وقال: أرجوك أن تمهل الوزير ثلاثة أيام عن المسير حتى أنظر في هذا الأمر العسير.

(قال الراوي): وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق ويدعى العابد نعمان، وكان كثيراً ما يوعده بالخير والإحسان. فقصده تلك الليلة وأخبره بما جرى وما كان من أمر الملك تبع حسان، فقال له: أبشر بالخير يا نور العين، فإن الرأي عندي أن تجهز مائة صندوق يكون كل واحد بطبقتين في الطبقة الواحدة تضع فارساً من أبطال

المكافحة والمجادلة وفي الثانية جهاز الجليلة وأنت تكون مهراجاً لها أمام سادات الجليلة، وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد.

واعلم لا خفاك أنه عند وصولك إلى هناك تجد سلسلة من النحاس الأصفر معلقة فوق الباب الأكبر وهي مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من أراد الضرر للتبع حسان فتقع عليه بالحال وتذيقه الوبال، فخذ لنفسك الحذر واتكل على الله إله البشر، فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع أعاديك، فإذا بلغت الإرادة وفزت بالسعادة بنيت مسجدي برسم العبادة، وخذ لك هذا السيف الخشب وبه تنال القصد والأرب، وأشار يقول:

قال عمران يا ابن ربيعة — أتاك الخير وسعدك تم
روح لقومك بشرهم — وقل لعمك وابن العم
وبشر المسمى همام — بأن الشمل اليوم يلتم
وقول للسعد آتى لقيس — واستوفى لثارك والدم
تأخذ ثارك من التبع — وتسقيه الخمر بكاس السم
هذا السيف تقلد فيه — وفي كفك يا أمير يتم
والبس قموعه سموطه — تبقى تضرب فيه بعزم
وحط بعينك عرق الشب — تبقى أحمر مثل الدم
حط عروسك في هورج — وقدهم بها ذمام منعم
وسوى عرضك فشمرها — احذر منه في حقك ذم
وإن واحد قال لك ما تكون — فاعجل واعمل حالك صم
والعب، وارقص، واتهرج — واحفظ ما يخرج من الفم

عــلــمــت مــرة والــفــرســـان بـــاكـــر لـــعـــنـــدي تـــلـــتـــم
وأنـــــا دبـــــرت هـــــل رأى مـــن خـــالـــف قـــولـــي يـــنـــدم
وســيــر لــعــنــده بــالأبــطــال قــبــل مــا يــغــضــب ويــنــســم
ســلــســلــة مــعــمــولــة هــنــاك يــعــلــم الــســحــر مــع الــطــلــســم
تــبــيــن كــل ســاعــة أعــداء احـــذر مـــنـــهـــا لا تـــعـــدم
طــيــب قــلــبــك لا تــغــتــاظ مــن ذات الــعــايــق لا تــهــتــم
ســألــت الــمــولــى يــنــصــركــم ويــزيــل عــنــكــم كــل الــهــم

فلما فرغ العابد من كلامه وعده كليب ببناء المقام على أحسن نظام، ثم رجع على الأثر وأعلم عمه بذلك الخبر وقال له يقتضي الآن أن نبادر بإتمام هذا الشأن وننتخب مائة من الفرسان ونضعهم في الصناديق على ظهور الجمال مع باقي الجهاز والأموال في صفة أمتعة وأحمال على عيون الرجال ويكونوا جميعاً بالأسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة هودجها وهي مزينة بالجواهر ويكون في صحبتها جماعة من السراري يدقون أمامها بالدفوف والمزامير وأنا أجعل نفسي مهرجاً لحضرتها وقائداً لزمام ناقتها، وندخل على تبع بهذه الوسيلة فإن تمت عليه الحيلة نلت المرام وأخذت ابنة عمي بحد الحسام وأكون قد بلغت أربي وأخذت بثار أبي، ومتى قتل الملك تبع يقع في قلب قومه الخوف والفزع.

(قال الراوي): فاستصوب الأمير مرة كلام كليب وعلم أنه سينال المراد بدون أدنى شك ولا ريب، فقال: لقد قلت بالصواب وأشرت بالأمر الذي لا يعاب فافعل ما تريد أيها الفارس الصنديد.

وكان قد أمهل الوزير ثلاثة أيام حتى تتم هذه الأمور والأحكام وقد أطلع مرة ابنته الجليلة على ما تقدم ذكره وعلى قصد كليب فعله، فلما كان يوم الارتحال انتخب كليب مائة من الأبطال وقص على مسامعهم واقعة الحال ثم وضعهم في صناديق الأحمال وحملوهم على ظهور الجمال، وكان من جملتهم الأمير جساس وجماعة من عظماء الناس.

وركبت في هودجها الجليلة وركب أيضاً الوزير والأمير مرة وجماعة من فرسان القبيلة، وتقلد كليب بالسيف من تحت الثياب ولبسوا فرواً من جلود الثعالب والذئاب وأرخى له سوالف طوال من أذناب الكدش والبغال وركب على قطعة من قصب وحمل دبوساً من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة أمام فرسان القبيلة.

فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان: من يكون هذا الإنسان؟ فإن زيه عجيب وحاله غريب. فقالوا: هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر بن غمرة، زاد عجبه وتبسم وهو لم يعلم بأنه كليب الأسد الغشمشم.

وكانت السراري تدق أمام الجليلة بالمزاهر والدفوف، والفرسان تلعب بالرماح والسيوف، وما زالوا يقطعون البراري والآكام مدة ثلاثة أيام حتى اقتربوا من مدينة الشام، فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والأعلام وأرسلوا رجلاً من أكابر العمد لكي يعلم تبع بوصولهم إلى البلد. فسار على الأثر وأعلم الملك بذلك الخبر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر، وأحضر الرمّال وكان عنده رمّال شاطر فحضر

بين يديه فقال له التبع: اضرب لي تخت الرمل، فجلس وضرب الرمل فرأى جميع ما فعلته بنو قيس وقال: الصناديق فيها رجال وأشار يقول:

قال الفتى الرمّال صادق ... سقاني الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل أنا كنت طفلاً ... وقلبته يمين مع يسارا
ولا أحد مثلي بالرمل عارف ... ولا غيري يعرف كيف سارا
أحط الرمل بأربع أمهات ... وولد الصغارا مع الكبارا
ألا يا أمير تبع يا ملكنا ... يا عز العذارى يوم غارا
أقول لك عن التقادير والجنايب ... وتحسب إن جابوا لك تجارا
جوا يا ملك هم يقتلوك ... ويدعوا القصر بعدك دشارا
صناديق التي لك حملوها ... بها أبطال بالعدد أمارا
يريدون قتلك يا ملك عاجل ... لهم ثار عليك وأي ثارا
هذا قد أعلمك يا مسمى ... وبالدنيا يشيع لها خبارا

(قال الراوي): فلما فرغ من كلامه وتبع يسمع نظامه نادى على العبيد فحضر مائة عبد وقال لهم روحوا إلى العمارة وكل صندوق تلاقوا فيه رجالاً اكسروه. فانطلق العبيد إلى العمارة وهم أسد وسعيد وبقية المائة عبد، هذا في يده عصا والآخر في يده بلطة والثاني في يده دبوس حديد، ولما وصلوا إلى العمارة ابتدأوا بكسر الصناديق وكسروا الأول والثاني إلى العشرة، فصاحت الجليلة: يا عبيد السوء لماذا تكسروا صناديقي؟ فقال لها العبيد: الرمّال قال إن في هذه الصناديق رجالات. فتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش. فقالوا: إن الرمال كذاب، وعادوا يردون الجواب. يقع كلام ثم يرجع الحديث إلى عجوز يقال لها حجلان وكانت رمّالة وهي التي

علّمت الرمال، بان لها جميع ما فعله بنو قيس وتباين لها أن الصناديق طبقتين في السفلى رجال وفي العليا قماش فافتكرت ساعة من الزمان وضربت ثاني رمل رأت بني قيس يقتلون التبع لا محالة فقالت: خير لي آخذ الوجه الأبيض عند بني قيس. فقامت أخذت عصاتها بيدها وسارت إلى أن وصلت عند بني قيس وهم في ارتباك عظيم فقالت لهم: أنا أتيت من عند تبع، فقالوا لها: وما قصدك؟ قالت: قصدي كشف الصناديق لأن الرمال قال إن فيها رجال ففتحوا لها أول صندوق والثاني، فقالت: إني أرى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك، وضربت على الطبقة السفلى فلما رأوها عارفة قالوا: استري على ما ستره الله، وفتحوا صندوق وأعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت: من الآن وصاعداً أساعدكم على قتل تبع. ثم إن العجوز طلعت إلى عند تبع والرمال بين يديه، وعمال يضربوا الرمال لأن العبيد أخبروا تبع بما شاهدوا وكذلك العجوز أخبرته كما أخبره العبيد، فقال تبع: يا عجوز الرمال كذاب، قالت: إن الرمال عمي من أكل الثوم والبصل فأمر الملك بضرب عنقه وراحت روحه إلى الوادي الأحمر وتقدمت العجوز إلى الملك وأشارت توصف حسن الجليلة وما أعطاها الله من الحسن والجمال:

تقول العجوز التي شاهدت ... مليحة تريح العنا والصدود
يا أمير تبع يهنيك فيها السعد ... وأقبل الخير لك والسعود
أتوك بني قيس أهل السماح ... وجابوا لك الخيل ثم النقود
وجابوا الجليلة لشخصك حليلة ... بخدين حمر وعينين سود
وقامة طويلة كعود القنا ... فوق الكتاف ترخى الجعود

بشعر طويل وشعر كحيل ... بلا جرميل تصيد الأسود

حواجب كما قوس ترمي الهزوم ... وذات حزام الذهب على النهود

وذات شفاف رقاق نظاف ... عقايل طرايف تزيل النكود

ولها وجه كبدر بليلة قدر ... وجنات حمر كما الورود

وجسم رقيق وريق رحيق ... وسنان لولو سبت الورود

لها عنق كعنق الغزال ... وطوق الذهب يوقد وقود

كتاف كالعاج مثل الزجاج ... والنقش مواج فوق الزنود

وكفين أطرى من الياسمين ... من قد حواها ينال السعود

وصدر كاللوح خلقه الإله ... وقد زين الصدر جوز النهود

وأعطاف وأرداف مثل العجين ... خلق الإله مهيمن ودود

أما الحجول تزيل العقول ... حب الطرف يطفي الصدود

أما القلائد مناسل ذهوب ... من الرأس مكعوب مثل البنود

وملبوسها مليح حرير مقصب ... مطيب بمسك وزهر وعود

وإن شافها رجل عابد فقيه ... غدا العقل منه شارد شرود

قد زينوا بني قيس لك عروساً ... تجلي لأجلك كل هم وكود

للملك حقاً قد أحضروا ... مليحة حلالها يزيل النقود

فأرسل وراها وخلي المحال ... واسمع كلامي واجلي الصدود

وادخل على بنت مرة وكن ... لطيفاً بقطف ثمار النهود

(قال الراوي): فلما فرغت العجوز من كلامها والملك تبع يسمع نظامها فراح عقله من وصف العجوز ونادى الوزير يأمره أن يحضر الجليلة بالتبجيل والتكريم وخلفها السراري بمركب عظيم، فدخلت على تبع وكان جالساً على كرسي المملكة وعلى رأسه تاج من الذهب الفاخر مرصع بأنواع الجواهر، فسلمت عليه ووقفت بين يديه، فرد عليها

السلام وآنسها بالحديث والكلام، وقال لها أهلاً وسهلاً بالسيدة الكريمة والدرة التي ليس يقدّر لها قيمة. ثم أجلسها بمكان قريب منه وترحب بها غاية الترحيب وقد انبهر من فرط جمالها وعذوبة ألفاظها وفصاحة مقالها لأنها كانت متصفة بالأدب ومن أجمل نساء العرب، فأخذ الملك يسألها عن أهلها وعشيرتها فقالت له بكلام الدلال: اعلم أيها الملك المفضال أن اتصالي بجانبك وتشريفي بساحة بابك جعل لقبيلتنا اسماً كبيراً وذكراً بين الناس شهيراً كيف لا وأنت ملك هذا الزمان والجوهرة الثمينة في هذا الأوان. الله يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك، فإن كنت تعظّم شأني وترفع منزلتي على أقراني لا تترك أبي وأعمامي وسادات أهلي وأقوامي بعيد عن فضلك وإحسانك لأنهم قد صاروا من جملة أتباعك وأعزائك. فأمر لهم بمكان ينزلون فيه وأمر بصناديق جهازي وباقي الأحمال تحضر إلى هنا في الحال، لأنها مملوءة من التحف والجواهر والقماش ومع كل ذلك فنحن أولاد عم.

(قال الراوي): فأمر تبع وزيره نبهان يذهب في جماعة من الأعيان ويعد إلى الأمير مرة أبي الجليلة ومن معه من بني عمه قصراً من القصور الجميلة وأن ينزل بقية الفرسان في غير مكان ويقدمون لهم الطعام والشراب وما يلزم من الثياب. فأجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعل كل ما أمر مولاه من تلك الساعة. وبعد أن نفذ الوزير الأمر ووضع الصناديق في داخل القصر، التفت الملك تبع إلى مرّة وقال له: يا عمي ما بقي من بعدي إلا أنت من مقامي فإن غبت أنا تكون أنت حاكم مكاني. ثم إنه قربه إليه وأخذ يترحب بالجليلة ويقول:

يقول التبع اليمني الكباري   أنا يا قيس زال الهم عني

ألا يا مرحبا يا أمير مرة ... أنا منكم وأنتم اليوم مني

ترى لولا الجليلة لي تعاتب ... وجابت لي الحسب والنسب مني

فما علمت أننا يمنا وقيسا ... بني جدين أخوين بطني

فلا تعتب علي بقتل أخيك ... ما قد صار ما بالعلم مني

(قال الراوي): فلما فرغ تبع من كلامه والحاضرين يسمعون نظامه، أخذوا بالكاس والطاس. وقال للجماعة حلت البركة فيكم، فقعدت تشرب معه المدام. وشرب الملك تبع إلى أن سكر، وغنت البنات ورقصت فقال تبع للجليلة: يا سيدة الملاح وكوكب الصباح، قد أجرينا المطلوب طبق المرغوب، فهل لك غرض آخر نقضيه حتى نفعل ما ترغبينه وتشتهيه؟ وكانت الجليلة تحول أفكارها لأجل أن تستدعي كليب إلى عندها، وقد سمعت صوته عند القصر، وهو يصرخ من جوانب القصر لأنه راكب على فرسه القصب وبيده دبوس من الخشب وكان يرقص في البستان وينتقل من مكان إلى مكان، فقالت: نعم أيها السيد الماجد باقي لي غرض واحد وهو أن لي نديم اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر حلو الصفات سريع الحركات يضحك الأحجار بأفعاله ويزيل الهموم بغرائب أعماله، قد أحضرته هذه المرة في خدمتي ليسليني عند حزني فإن حسن لديك أمر أن يدخل إليك ويلعب بين يديك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول أحزانك وأتراحك. فضحك من كلامها وأجابها إلى مرامها، وأمر الخدام بإدخاله ليرى طرفاً من أعماله، وعند وصوله إلى باب الإيوان نظر السلسلة التي ذكرها العابد نعمان فامتنع عن الدخول وأخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول: ما هذه الحيلة التي أراها وأنا خايف من شرها وأذاها. فقال: ادخل وما عليك من بأس فما هي

إلا سلسلة من نحاس. فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع، ولما طال المطال التفتت الجليلة إلى تبع في الحال وقالت له بكلام الدلال: اعلم أن قشمر من أخوف البشر فإن حسن لديك ولم يصعد عليك أمر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب فرفعوها وأتوا بقشمر إليه فلما صار بين يديه سلم عليه ودعا له بطول العمر والبقاء ودوام العز والارتقاء، وأخذ كليب يمزح أمامه ويلعب بسيفه قدامه وهو في تلك الثياب التي ذكرناها والصفة المضحكة التي وصفناها فكان تارة يبحلق عينيه ويرقص الأرض بيديه ورجليه، وتارة يقول: أين الفرسان الفحول وأين أبو عطبول، وأحياناً يرقص ويضحك بلا سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب، كان من أعجب العجب فاندهش تبع من أعماله واستغرب من أحواله وأقواله.

ثم قال للجليلة: والله يا كاملة المعاني وشريكة عمري وزماني لقد أصبت في منادمة هذا البهلول الذي يدهش بأفعاله العقول فإنه من كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام والجواب. فقالت له: صدقت في ما نطقت، فإنني لم أرَ رجلاً مثله بين الأنام في الزلاقة وفصاحة الكلام، ومتى بقي عندك عشرة أيام يقوم منادمتك حق القيام ويدعوك مشروح الخاطر على طول الزمان. ثم قال قشمر وهو كليب للتبع حسان: إن كنت تريد أن تطرب الآن فأمر سيدتي الجليلة أن تغنيك بأبيات من الشعر فإن صوتها مليح ولفظها فصيح. فقال لها: هل تحسنين الغناء يا سيدة النساء؟ فقالت: إي وأبيك فإن كنت تريد مني أن أغنيك وأطربك وأسليك فأمر قشمر أن يقفل الباب لئلا يسمعنا أحد

الخدام والحجاب. فاستصوب كلامها الملك تبع وأمر قشمر أن يقفل باب المخدع، فقفله وعاد بالعجل وقد أيقن ببلوغ الأمر. وأنشدت الجليلة تقول من فؤاد متبول:

لقد قالت الجليلة بنت مرة ... شربت الخمر ما بين الأماره
شربنا الخمر في كاسات جوهر ... فزال العقل وأصبحنا سكاره
بحضرة تبع الملك المسمى ... بحسان إذا ما شن غاره
وقد أمسيت في قبضة يديه ... ومن حبه شعل قلبي ناره
ألا يا حارس البستان صنه ... وإن فرطت الطير طاره

(قال الراوي): فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر والنظام زاد بالتبع الوجد والغرام وسكر من غير مدام، وقال: مثلك من تكون من النساء فقد زاد سرورنا في هذا المساء. فلما رآه زاد به الطرب وأخذ يرقص أمامه ويلعب بالسيف الخشب فقال له تبع: عيب عليك يا قشمر أن ترقص بهذا السيف أمام الملك الأكبر. فقال: اعطني إذن حسامك وأنا ألعب به أمامك. فقالت له الجليلة: بحياتي عليك أن تبلغه الأرب وتعطيه ما طلب، فإنك ترى منه العجب. فأمره أن يدخل إلى قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجع بالعجل، فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة أومت إليه أن يسرع في العمل. وعند دخوله إلى ذلك المخدع وجد سلاح تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل بعد أن فتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال فبقوا في ساحة الدار وقاموا له بالانتظار. وكان قد حمل الحسام من غمده وهو يهزه في يديه ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه وتذكر أباه فصال وجال ولعب

بالسيف كما تلعب الأبطال في ساحة القتال وبعدها تقدم وهجم عليه فعرفه حينئذٍ الملك تبع وقد انقطع من الخوف وأيقن بالهلاك والقلعان فقال: بالله عليك يا سيد الشجعان وفارس الميدان أن تعفو عني وتسمح عما فرط مني. فقال: لا بد من قتلك كما قتلت أبي وأكون قد أخذت ثاري وبلغت أربي. فقال تبع: إذا كان لا بد لك من هذا الشأن فأمهلني ساعة من الزمن حتى أفيدك عن جميع الأمور والأحوال التي تحدث إلى آخر الأجيال فقد اتضح لي الحال ووقعت في شرك العقال. ثم أنشد وقال:

الملحمة الكبرى للتبع حسان

يقول التبع الملك اليماني ... لهيب النار تشعل في فؤادي
أمير كليب يا فارس ربيعة ... ويا حامي النساء يوم الطراد
أريد اليوم أن أعلمك شيئاً ... لتعرف حال أخبار العباد
فموسى كان في الدنيا نبياً ... له التوراة أعطت للرشاد
وداود النبي قد جاء بعده ... يبشر بالزبور أهل الفساد
وعيسى ابن مريم جاء أيضاً ... بإنجيل الخلاص لكي ينادي
نبي لم يكن في الناس مثله ... لأن الله اختاره يفادي
فكم ميت بكلمته أقامه ... وسقوم شفاه من الأمراض
وعندي قد تبين بالملاحم ... بأنك قاتل دون العباد
وبعده شاعر تنزل عليكم ... وتفتن بين قيس في البلاد
وأنت برمح جساس ستطعن ... وعبدي يذبحك بين الجماد
وتكتب بدمائك على البلاطة ... لمن بعدك لتشتيت الأعادي
ويأتي أبو ليلى المهلهل ... فيصلى الحرب في كل البلاد

ويقهر كل جبار عنيد يضرب بالسيف في يوم الجلاد
وتأخذ الجليلة لك قرينة وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك يسمى الجرو قهار الأعادي
يقتل إلى جساس خاله وأما الزير تقتله الأعادي
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر وتصحبه السعادة في العباد
ويبقى ملكه سبعين عاماً وبعد ذلك يطوى في الوهاد
ويظهر له ولد يدعى بدمر شديد البأس مرفوع العماد
فيملك في بلاد الشام بعده يجيب الماء من أقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر يهين الضد في يوم الطراد
وبعده يظهر الهادي محمد يقيم الدين ما بين العباد
وأصحابه معه عشرة كوامل كرام الناس سادات البلاد
أبو بكر وسعد مع سعيد وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلي وعامر مع حسين أهل الرشاد
يموت الهاشمي ويصير خلف على الأحكام بعده بالعباد
أبو بكر يموت بلسع حية وبعده عمر يقتل بالطراد
علي بالسيف يرديه ابن ملجم يتيماً انتشى بين الولاد
ولا يعرف له قبر محقق على وجه الثرى بين العباد
وتختلف الصحابة على الحكومة ويحكمها حسين بالبوادي
وبعده بنو أمية سوف تحكم وأولهم معاوية ابن عاد
ومن بعده بني العباس تحكم سنين كثيرة بين العباد
وبعده الخوارج سوف تظهر فواطمة الفواحش والعناد
يقيموا الشر في كل الأراضي ويملوا الأرض طراً بالفساد
وتظهر من بلاد الشر عصبة فيقصد جيشها عرب البلاد

هلال وعامر مع آل قيس — يزيد وحرب حمير مع أياد
حسن أمير فخر البرايا — وبعد ديار قهار الأعادي
وأبو زيد ابن عمه ليث أروع — شديد البأس في يوم الطراد
يطوفون البلاد فيملكوها — ويسبون العداد أهل العناد
ويمحوا العجم مع كل طاغ — بأرماج وأسياف حداد
وقبرص والجزائر يملكوها — وبدريس الخزاعي والأعادي
شبيب التبعي بالشام يقتل — وتترك جثته فوق الجماد
وسركيس بن تاذب سوف يقتل — بسيف دياب قهار الأعادي
كذا فرمند مع مصر العدية — ستخرف دورها بين البلاد
وبعده يظهر الأشطان ظالم — خبيث الأصل من قوم شداد
بنو أيوب تظهر بعد منه — ينيمون الذين من بعد الفساد
ويظهر ابن عثمان المساعد — بأرض الشرق ويحكم بالعباد
ملوك الأرض تخشى من لقاهم — لأن جيوشهم مثل الجراد
عداد ملوكهم عشرة وعشرة — وتسعة بعدهم دون ازدياد
ويظهر تمرلنك من الأعاجم — وجنكز خان من قوم كراد
ويظهر بعده ملكاً قوياً — يثير فتن الحرب في كل البلاد
طويل الجسم ذو همة عالية — له اسمين من ظاهر وبادي
يقيم السيف في الأقطار عمداً — ويجري الدم في كل البواد
ويظهر فارساً يدعى قطيعة — فعشر سنين يظلم العباد
ويظهر بعده الدجال حقاً — فتتبعه الورى أهل الفساد
يطوف الأرض من شرق وغرب — ويفعل معجزات في البلاد
ويظهر ضد المهدي سريعاً — ويسطع نوره في كل وادي
فهو عيسى المسمى ابن مريم — فيقتلك ويملك في البلاد

وبعده دابة تظهر سريعاً ... فتفعل معجزات في البلاد
ونار من عدن تظهر وتسطع ... فتشكو الناس من هول النكاد
وبعده الشمس تظهر من مغيب ... وتزداد الخلائق في الفساد
ويأجوج ومأجوج جميعاً ... تحيط رجالهم كل البلاد
فلا نهر الفرات لهم يروي ... ولا سيحون والدجلة المداد
ويغشى الأرض موت يا كليب ... وجوع وقتل في كل العباد
ونيران تعم الأرض طراً ... على أعلى الجبال وفي كل وادِ
وبعده يغلق باب المراسم ... وباب الشر يفتح باقتصاد
فلا يصعد ولا يأتي جواب ... فذاك الوقت يحترق العباد
وبعده يظهر من جهنم ... وينفخ ريح من أقصى البلاد
يموت الخلق منه ليس يبقى ... سوى الرحمن خلاق العباد
وبعده يظهر الديان حقاً ... إله العرش ديان العباد
فعندي الجفر قد أخبر مؤكد ... بما أخبرتكم دون ازدياد
واسمع يا أمير كليب مني ... حقائق قصتي واطلق قيادي
واعلم يا أمير أني عتيقك ... مدى عمري إلى يوم الميعاد

(قال الراوي): ولما فرغ الملك تبع من هذه الملحمة وسمع كليب ما فيها من الأخبار المتقدمة والمتأخرة، تعجب غاية العجب وقال: لست أعفو عن قطع رأسك وإخماد أنفاسك لأنك افتريت وظلمت وتعديت. ثم أجابه بهذا القصيد على سبيل التهكم والتهديد:

يقول كليب قهار الأعادي ... كلام أشد من ضرب البنادي
أنا قد صرت هذا اليوم حاكم ... أتاني السعد مع نيل المراد
أيا تبع إلينا قد جيت عاجل ... قتلت أبي وخربت البلاد

فـمـا أبـقـيـت قـيـمـة لـلأمـارة وقـد ألـبـسـتـهـم ثـوب الـسـواد
هـتـكـت الأرض يا تـبع بـفـعـلـك وصـيـرت الأنـام لـك أعـادي
جـعـلـت رجـالـنـا تـشـبـه نـسـانـا وأذلـلـت الإمـارة فـي الـبـلاد
فـوالـلـه ثـم والله ثـم والـلـه إلـه خـالـق كـل الـبـوادي
فـلـست بـراجع عـن قـطـع رأسـك ولـو مـلـكـتـنـي كـل الـبـوادي

(قال الراوي): فلما فرغ الأمير كليب من كلامه وفهم تبع فحوى قصده ومرامه قال: بالله عليك أيها السيد المحترم أن تعفو عني وتجعلني من الخدم. فقال كليب: لا بد من قطع رأسك يا مهان ولكن أسألك كيف قتلت أبي غدراً وبالميدان. فقال تبع: إذا كان لا بد لك من ذلك يا فارس المعارك فأمهلني ساعة حتى أخبرك عن قتل أبيك وأتودع من هذه الدنيا قليلاً. ثم إنه أبدى حزناً وعويلاً وأشار يقول من فؤاد متبول وعمر السامعين يطول:

قـال الـمـلـك تـبـع حـسـان ظـلـمـنـي دهـري دون الـنـاس
يـا ابـن ربـيـعـة يـا مـخـدوم أنـت أمـيـر شـديـد الـبـاس
طـويـل الـبـاع بـيـوم نـزاع عـفـيـف شـجـاع ثـقـيـل الـراس
تـسـألـنـي عـن قـتـل أبـيـك فـكـل بـنـايـة لـهـا أسـاس
فـلـمـا جـيـت لأرض الـشـام أتـى لـلـقـايـا كـل الـنـاس
أتـانـي كـل أكـابـر قـيـس وكـل أمـيـر لـيـدي بـاس
إلا أبـوك فـقـد خـالـف ولـم يـفـعـل كـبـاقـي الـنـاس
فـزاد الـغـيـظ بـوسـط الـقـلـب أمـرت بـشـنـقـه لـلـحـراس
وهـذا فـأمـر الله مـكـتـوب فـوق جـبـيـنـه بـأعـلى الـراس
وأنـا بـقـيـت لـهـذا الـيـوم وحـيـد فـريـد بـلا إيـنـاس

أريد العفو عما جنيت ... بحياة عمك مع جساس
إني كنت زعيم القوم ... وحكمي نافذ بين الناس
فلما أتاني وعد الله ... بطل العزم وظني حاس
دعتني الجليلة بالحيلة ... وغابت عني كل الناس
وهذا أمر الله محتوم ... وأمره نافذ فوق الناس

(قال الراوي): فلما فرغ تبع من هذا الشعر والنظام قال له كليب: لا بد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك. ثم ضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً. فلما رأته الجليلة قد مات زادت بها الأفراح واعتنقت ابن عمها وقبلته وقالت له: مثلك من تكون الفرسان يا ليث الميدان. فشكرها كليب وهنأها بسلامتها وزاد في إعزازها وكرامتها ثم خرج من المخدع وأعلم الفرسان بقتل الملك تبع وقال لهم: لقد بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد فقالوا: نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك. ثم وضع رأس الملك على رأس السنان وخرج الأبطال والفرسان وطافوا في شوارع البلدة وضربوا من وجدوه بالسيف المهند وهم يقولون عن فرد لسان: هذا رأس سيدكم حسان فقد عدمناه وقتلناه وأرحنا الناس من شروره وبلاه فمن عصى أهلكناه ومن أطاع أبقيناه في قيد الحياة وله منا الأمان على طول الزمان.

(قال الراوي): فكانت أكثر أهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه فاجتمعت العساكر والأعيان وطلبوا من كليب الأمان وأنهم يكونوا له من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان، فأجابهم كليب إلى ذلك الطلب ورفع عنهم السيف الأحدب ووعدهم بالجميل

والخيرات وسمح لهم بخراج عشر سنوات فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر. ثم اجتمعت بنو مرة وأكابر العشائر وقواد العساكر وألبسوه تاجاً مرصعاً بالجواهر ثم أجلسوه على كرسي المملكة وجلس بقربه وزير الميمنة وهو نبهان وزير التبع حسان ووقفت أمامه الحجاب والأمراء والنواب، فحكم معاملاً الناس بالجود والكرم ومنصفاً المظلوم ممن ظلم. وفي الليلة الثانية اجتمعت سادات القبيلة وزفوا عليه ابنة عمه الجليلة وقد كنا ذكرنا في أول السيرة عن أوصاف هذه السيدة الخطيرة وما احتوت عليه من الحسن والجمال والفضل والكمال فاعتنقا اعتناق الأحباب وزال عنهما الغم والاكتئاب وباتا في حظ وانشراح إلى وقت الصباح. وفي اليوم الثاني وردت إليه المدائح والتهاني واشتهر ذكره في البلدان وهابته ملوك الزمان.

(قال الراوي): وكانت الجليلة قد طلبت من كليب أن يبني لها قصراً من أجمل القصور وينشئ فيه بستان يحوي جميع أنواع الزهور فأجابها إلى ذلك ووعدها ببناء قصر لا مثيل له في جميع الممالك. ثم إنه نزل إلى الديوان وجمع الوزراء والأعيان وأعلمهم بذلك الشان فقال له الوزير نبهان: اعلم يا ملك الزمان أنه لا يوجد في هذه الأيام من يقدر أن يبني لك ذلك القصر طبق المرام إلا معمر المختص بالريان ملك مصر لأنه هو المشهور ببناء القصور الحسان وهو الذي عمر قصر تبع حسان. فأرسل كليب واستدعاه إليه ولما حضر بين يديه قبل الأرض وسلم عليه، فقال له كليب أريد منك أن تبني لي قصر من القصور الحسان لا يوجد مثله في جميع المدن والبلدان ويكون له جنينة جميلة المنظر تحتوي على جميع الأشجار والخضر فإن أتقنت الصنعة طبق المرغوب

نلت المقصود والمطلوب، فأجابه بالسمع والطاعة وباشر في بناء القصر في تلك الساعة.

(قال الراوي): ولما اشتهر قتل تبع في اليمن تواصل الخبر إلى صنعاء وعدن فهاجت الرجال وكثر القيل والقال وكان لملك تبع ابن عم من الأمراء المشاهير يقال له عمران القصير وكان شديد البأس قوي المراس فلما بلغته تلك الأخبار صمم على غزو بني قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود وركب في مائة ألف مقاتل وجدَّ في قطع المراحل قاصداً بلاد الشام بكل سرعة واهتمام. ولما بلغ كليب هذه الأخبار استعد للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسان والأبطال، ولما التقى الجيشان أمر كليب أن تقدم الفوارس إلى ساحة الميدان وأخذ ينشطهم بالكلام على قتال الأخصام فهاجت الشجعان وتبادرت للضرب والطعان. وكان الأمير كليب أول العسكر كأنه الأسد الغضنفر وعلى رأسه البيارق والسناجق. ثم التقت بالرجال بالرجال واشتعلت بين الفريقين نيران الحرب والقتال حتى عظمت الأهوال فلله در الأمير كليب بطل الأبطال وما فعل في ذلك اليوم من الفعال فإنه هجم هجوم الأسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب أقوى من الجلمود. فبادر فرسان الكفاح وخطف المهج والأرواح وما زال الدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقت العساكر عن بعضها البعض وباتوا في تلك الأرض. وعند الصباح رجعوا إلى الحرب والكفاح فبرز الأمير عمران إلى ساحة الميدان فصال وجال وطلب براز الأمير والأبطال فأراد كليب أن يبرز له فمانعه حجابه وقالوا: أيها الملك إن فينا أبطالاً وفرساناً تستطيع أن تحاربه ثم برز إليه

فارس من الصناديد يقال له ميمون بن الرشيد فالتقاه الأمير عمران بقلب أقوى من الصوان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى استظهر عمران وطعن ميمون بالرمح فوقع قتيل وفي دمه جديل، فأخذ سلبه وحصانه ثم قوم سنانه وتقدم إلى معركة الحرب وقال: أين فرسان الطعن والضرب؟ اليوم تبان الفروسية وتعرف شجاعة اليمنية والقيسية. فبرز إليه آخر فأذاقه الموت الأحمر وما زالت تبرز إليه الرجال وهو يجندلها على بساط الرمال حتى قتل سبعة من الأبطال وكانوا من أكابر السادات قد اشتهروا في الحرب والغارات واستمر القتال على هذا المنوال مدة تسعة أيام وهم في إبراز واقتحام. وفي اليوم العاشر خرج الأمير مرة لقتال عمران ولما صار في الميدان تقنطر عن ظهر الحصان فأدركه ابن عمه همام وجاء به إلى الخيام فعند ذلك برز إلى عمران الأمير جساس وصدمه بقوة قلب وشديد بأس غير أنه لم ينجح في قتاله ورجع عند المساء عربه ونزاله فوقعت هيبة الأمير عمران في قلوب الفرسان والشجعان فاستعظم كليب ذلك الأمر واشتعل قلبه بلهب الجمر وقال: ما أريد إلا عمر فإذا كان الصباح بارزته في معركة الكفاح لأنه طغى وتجبر وقتل منا كل أسد غضنفر. وبات تلك الليلة وهو في غم شديد وقلق ما عليه من مزيد، فما أقبل الصباح ركب كليب الحصان واعتقل بالسيف والسنان وبرز لساحة الميدان لقتل الأمير عمران الذي برز في ذلك اليوم وهو ينادي: أين الأبطال الصناديد؟ لا يبرز إلا كليب المحتال الذي قتل الملك تبع بالغدر والاحتيال. فما تم كلامه حتى صار الأمير كليب قدامه وصدمه صدمة منكرة أشد من صدمات عنترة. فقال له عمران: من تكون من الفرسان؟ فقال له: اعلم أيها التيس أني ملك على بني قيس فسوف ترى

مني ضرباً يفك الحديد ويذهب أبصار الفرسان لما غدرت تبع بالحيلة مع ابنة عمك الجليلة. فقال كليب: أما علمت يا قرنان بأن الرجال عند أغراضها نسوان، وإني ما قتلت الملك تبع إلا لغدره وقلة حيائه وكثرة شره؟ فإنه قتل والدي وكان عوني ومساعدي وحق هذا الذي أوجب ذلك اليوم سألحقك به وأسقيك كأس المهالك. فلما سمع عمران من كليب هذا الكلام اشتد بينهما الخصام فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان درغامان. فانبهرت من قتالهما الفرسان وأحدقت إليهما الأبصار من اليمين واليسار واستمرا على ذلك الحال إلى قرب الزوال حتى تعجب عمران من ثبات كليب أمامه لأنه كان يظن أنه لا يوجد في الدنيا من يقدر أن يقف قدامه، فعند ذلك قاربه وفاجأه وطعنه بالرمح قاصداً هلاكه وفناه فخلي كليب من الطعنة فراحت خائبة بعدما كانت صائبة، ثم هجم كليب وقال: خذها يا عمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان. وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قطعتين وحان عليه غراب البين. وبعد ذلك حملت العساكر على بعضها وتقاتلت السيوف والخناجر فكثر القتل والجراح وجرى الدم وساح وزعقت النفوس والأرواح من ضرب السيوف وطعن الرماح. وكان بعد قتل الأمير عمران تضعضعت من عساكر اليمين الأركان فولوا الأدبار وركنوا إلى الهرب والفرار فتبعهم كليب بالعسكر وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف نفر وغنم غنائم عظيمة لها قدر وقيمة وما زال تابع آثارهم حتى دخل ديارهم فخرجت إليه أكابر البلاد طالبين العفو والأمان فأجابهم كليب إلى ذلك الشأن وارتد راجعاً إلى الشام بعد أن رتب عليهم خراجاً يدفعونه في كل عام. فدخل القصر بالعز والنصر

فاجتمع بابنة عمه الجليلة وباقي سادات القبيلة وطاب له الوقت وزال عنه المقت، ثم بعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك القصر المذكور فكان من عجائب الزمان والأوان لأنه كان في غاية الإتساق لا سيما البستان فإنه كان كفردوس الجنان فيه من جميع الأشجار والفواكه والأثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة حتى أعجب كليب به وأنعم على بانيه وفرشه بالفراش الفاخر الذي يبهر النواظر ويحير العقول. وجعل أبوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بأنواع الجواهر المنتخب. ثم نقل ابنة عمه الجليلة إليه وكانت قد ولدت سبعة بنات مثل البدور الطالعات فربتهن بالدلال والعز والإقبال. فاتفق له ذات يوم من الأيام أن زاره مرة ابن أخيه كليب في جماعة من بني الأعجام وبعد أن دار بينهم الكلام قال مرة: يا ابن أخي كثرت عليك الرجال والأغنام لسبب كثرة المواشي والازدحام فمرادي الآن أن أرحل عنك بأنعامي ورجالي وباقي أموالي ولا شك بأننا في هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الأحوال ونحصل على راحة البال. فقال كليب: افعل يا عمي ما تحب وانزل في أي مكان تريد قرب الديار فإن البلاد بلادنا ونحن ملوك الأقطار.

(قال الراوي): فرحل مرة بقومه ورجاله ونوقه وجماله ونزل في وادٍ كثير النبات يبعد مسافة تسع ساعات. وكان مرة قد شاخ وكبر في العمر فأقام الأمير جساس على بني بكر، فكان يحسن إليهم ويحكم بالإنصاف عليهم. فشاع ذكره واشتهر أمره فكانت تقصده الشعراء والفرسان وهو يكرمهم ويخلع عليهم الخلع الحسان. ولم تكن إلا سنة من الزمان حتى صار يحكم على مائة وعشرين ألف عنان. هذا ما كان من أمر جساس.

وأما كليب الفارس الدعاس فإنه كان في سنوح الفرص يخرج إلى الصيد والقنص وكان له عدة إخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة وكان من جملتهم المهلهل الملقب بالزير وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب هذه السيرة والوقائع المشهورة. وكان في تلك الأيام ابن عشرة أعوام وكان في الشجاعة كسبع الغاب لا يخاف من أحد ولا يهاب، فصيح الكلام منعكفاً على شرب المدام، وسماع الأصوات والأنعام، ينشد الأشعار البديعة ويأتي بالمعاني النفيسة الرفيعة. وكان كليب لحبه لا يعترضه بأمر من الأمور بل يقابله بالفرح والسرور وكان الزير يتباهى بشجاعته أمام أخيه وأنه لا يوجد في الفرسان من يضاهيه، فقال له كليب في بعض الأيام: أراك يا أخي مشتغلاً بالملاهي وشرب المدام فقلبك خالٍ من الهموم والأحزان، كأنك لا تسأل عن تقلبات الزمان، فمن الواجب أن تحسب حساب العواقب لأن الدهر دولاب سريع الانقلاب، إذا أضحكك يوماً أبكاك سنة وليس على أحد جميل ولا حسنة. فقال المهلهل: ما دمت أنت في الوجود وأنا في خير لا أحسب حساب الغير، ولكن إن جار عليك الزمان وأحاطت بك الحساد والخوان فأنا أرد عنك الأثقال وأجندل أمامك الأبطال، أنا الأسد الغالب فارس الكتائب والمواكب، أنا قهار الأعادي إذا نادى المنادي. فتبسم كليب من كلامه وتركه مشتغلاً بشرب مدامه وارتد راجعاً إلى الديوان وقد راق له الزمان.

(قال الراوي): وقد اتفق بعد ذلك بأيام أن أولاد مرة اجتمعوا مع بعضهم في الخيام وضربوا تختاً من الرمال ليروا ما يحل بهم وما يجري

عليهم وما يصيبهم، فبان لهم أن الأمير جساس لا بد أن يقتل الأمير كليب ويظهر الوزير ويأخذ ثأره بدون ريب ويقتل منهم كل أمير وجبار وبعد وقائع تستحق الاعتبار. فاعتراهم القلق والكدر وأجمع رأيهم على أن يقتلوا الزير قبل أن يكبر وكان من جملتهم الأمير سلطان بن مرة فأنشدهم يقول:

على ما قال سلطان ابن مرة ... مبيد الضد في يوم النزال
تبين عندنا جساس يقتل ... كليب بن ربيعة ولا يبالي
ويأتي الزير بعده يا أمارة ... يشتت جمعنا بين الجبال
ويمحى ذكرنا من كل أرض ... ويفنينا ويسبي العيال
هلموا نقتله ونبيد اسمه ... ونسلم من تصانيف الليالي
فيلزم أن تروح إلى الجليلة ... وتعلمها على ما قد بدا لي
فهذه أختنا ليست غريبة ... فتسعفنا على نيل الأماني
جليلة عارفة في كل فن ... وتعرف في الزيارج والرمال
فقوموا كلنا نذهب إليها ... ونقضي شغلنا قبل الوبال

فلما انتهى السلطان من هذا الشعر والنظام وسمعه الأمير جساس ومن حضر من أبناء مرة الكرام، استحسنه جميع القوم وركبوا في ذلك اليوم، وخرجوا من القبيلة قاصدين أختهم الجليلة، وكانوا ثلاثة وأربعين ولداً ذكراً كل منهم أسد غضنفر، ولما وصلوا إليها دخلوا وسلموا عليها، فتلقتهم بالترحاب والإكرام وأقاموا عندها ثلاثة أيام، ثم قالوا لها عن فرد لسان: قد ظهر لنا في الرمان بأنه يظهر للزير شأن وأي شأن فيقهر الأبطال والشجعان، ونهاية ملوك الزمان ويعاملنا بالجور وسوء

الأدب وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب، فاتفق رأينا على قتله قبل أن يكبر وأتينا لنعلمك بالخبر، فما هو رأيك في هذا الأمر المنكر؟ فقالت: إذا قتلتموه فينكشف الأمر ويأخذ كليب بثأره منكم فيزداد الشر، وما دام الأمر كذلك فأنا أجعل كليب يلقيه في المهالك، ثم أنشدت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... تعالوا إخوتي اصغوا لقول
تريدوا قتل أبو ليلى المهلهل ... أخوه كليب خلفه مثل غول
ومن خلفه غدير وزير قان ... سباع الغاب في يوم المهول
وست وأربعين بنو أبيه ... يجوكم راكبين على الخيول
وتركب خلفكم كل الفوارس ... فوارس تلقب مثل الفحول
ولكن سوف أرميه بحيلة ... تحير كل أصحاب العقول
ويبقى كليب يقتله بيده ... ويجعله طريحاً على السهول

(قال الراوي): فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها شكرها إخوتها على حسن اهتمامها وركبوا ظهور خيولهم وراحوا في حال سبيلهم. فصبرت الجليلة إلى وقت العصر حتى حضر كليب إلى القصر وكانت قد شقت جميع ما عليها من الثياب وأظهرت الغم والاكتئاب، فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الأحوال لأنه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمة لحسنها وجمالها ودلالها ولا سيما أنها ابنة عمه ومن لحمه ودمه، فقال لها: علامك يا جليلة؟ مالي أراك في هذه الوبيلة؟ فسكتت من فؤاد متبول وأجابته بهذه الأبيات تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... كليب أنت قيدوم السرايا
وتحكم في القبائل والعشائر ... وفي كل المدائن والقرايا
وحكمك نافذ في كل أرض ... وتخدمك الملوك مع الرعايا

وإني بنت عمك يا مسمى ... ومثلي ليس يوجد في البرايا
أتاني الزير أخيك في غيابك ... يريد فضيحتي بين الصبايا
قبضت عليه من عنقه فولى ... وراح بسرعة وسط الخلايا
ألا يا أمير قل كيف تعمل ... فاقتله وأرده المنايا
وإن لم تقتله حالاً فإني ... أروح اليوم من وسط الخبايا
وتبقى الناس تشتم في قفايا ... وتبلى بالدواهي والرزايا
وهذا الأمر لا يصلح لمثلك ... كريم الأصل عكاز المطايا
فاقتله واخلص من بلاه ... ولا تخشى أثام ولا خطايا
فقتل الزير أصوب من حياته ... لأنه خائن دون البرايا

فلما سمع كليب منها هذا الشعر والنظام، غاب عن الصواب وأرسل أحد الرجال ليأتيه بأخيه الزير في الحال. فذهب الرسول واستدعاه فامتنع عن الحضور لأنه كان في ذلك الوقت يشرب الخمر وجلساءه وهم في فرح وسرور، فرجع الرسول على الأثر وحدث الأمير كليب بذلك الخبر، فازداد كدراً على كدر، وأرسل الرسول إليه ثانياً فما حضر، فعند ذلك سار كليب إليه وقد عظم الأمر لديه. فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثياب الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وأرسله مع الرعيان ليرعى النوق والجمال. ورجع إلى الجليلة وأعلمها بما فعل مع أخيه المهلهل. فلما رأت أنها لم تبلغ الأمل زادت غماً وكدراً وأخذت تدبر على هلاكه بحيلة أخرى، فقالت ذات يوم لكليب أما تخشى من الهتيكة والعيب، أما في رأسك نخوة وناموس من جهة أخوك المهان المعكوس؟ فقال

لها: ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام؟ قالت: بلغني من بعض الغلمان الذين يدورون مع الرعيان بأنهم فعلوا معك القبيح وأنت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبر وقد تحدث فيك جميع البشر. ثم شرحت له الواقعة بهذا الشعر والمقال:

تقول الجليلة يا محفوظ أتاني علم بحال أخوك

وشاع العلم بكل القوم غني الناس مع الصعلوك

وصار الناس بقيل وقال وكل البدو عليك ضحوك

أنت أمير كبير القوم وقيس وحمير قد هابوك

فكيف يكون أخوك الزير وقومك من أهله يجافوك

كيف بقالك رأس يقوم والرعيان لقد عابوك

فاقتل أخوك في سيفك وإلا قومك قد لاموك

فكل العالم تحكي فيه يقولوا الزير بقى مهتوك

فهذا الأخ ومثله ألف في يوم الضيق فما عانوك

أخاف يقولوا كل أهله مثله والعالم يشكوك

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر ووقف كليب على حقيقة الأمر، التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب، وأخذته الحمية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية وقد صمم على أن يقتل أخوه ويسقيه كأس المنية. فقالت الجليلة: لا تقتله يا أمير لأن كلام الناس كثير فالأوفق أن تأخذه إلى وادي العباس وهو مكان منقطع من الناس، كثير النمور والأسود فتقتله هناك وتعود، فتفترسه الوحوش والآساد وتتخلص من كلام العباد. فقال: هذا هو الرأي الصواب والأمر الذي لا يعاب. ومن وقته ركب ظهر جواده واعتد بآلة حربه وجلاده واستدعى الزير

إليه، فلما تمثل بين يديه قال له: مرادي أن أذهب للصيد والقنص لأزيل ما بقلبي من الغصص فسر أمامي. فامتثل أمره وسار وجد في قطع البراري والقفار حتى وصلا إلى الوادي المذكور وهو مكان مهجور وما زالا سائرين حتى صارا في وسط ذلك المكان وإذا بجواد كليب قد شخر ونخر وضرب الأرض وتأخر وإذا بسبع من بطن الوادي قد ظهر فلما رآه الأمير كليب هجم عليه بالجواد ورماه بالرمح فأخطأه فتبعه الأسد فانهزم كليب من أمامه خوفاً من العطب فلما رأى الزير أخاه قد هرب تقدم نحو الأسد بقلب أقوى من الحجر وطعنه بخنجر كان معه فقده نصفين فأخرج قلبه فأكله وصاح على أخيه: ارجع يا أخي ولا تخف. فرجع كليب وهو يتعجب من أفعال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصفا له قلبه وقال في سره: من يكون له أخ مثل هذا ويفرط فيه؟ وإن عاش هذا الغلام يكون من عجائب الزمان. ثم رجع وإياه فلما رأتها لجليلة قالت: لماذا ما قتلته؟ فأخبرها بواقعة الحال وكيف أنه قتل الأسد والذي يكون مثله لا يستأهل القتل بل يجب له الإكرام ثم أشار يقول:

يقول كليب من صفوة ربيعة	شديد البأس ذو عزم رجيح
كريم الأصل سلطان متوج	وفي طرق الكرم ماني شحيح
ألا يا بنت عمي يا جليلة	ألا يا صاحبة الوجه المليح
نظرت اليوم من سالم فعالاً	يشيب لها الطفل الطريح
لقاني السبع من خلفي وزمجر	فصار الزير من خلفه يصيح
فكر السبع نحو الزير هاجم	فعاد الزير واقف مستريح
ولما قد دنا منه وقارب	فغار عليه كالسبع الجريح

طعنه الزير بالخنجر فقده		وألقاه على الغبر طريح
فلما شفت هذا الفعل منه		وعلمت بأنه فارس رجيح
رجعت إليه من فرحي سريعاً		وصحت عليه في قول مليح
مهلهل يا مهلهل يا مهلهل		فأنت اليوم أولى بالمديح

(قال الراوي): فلما فرغ كليب من شعره زاد كدر الجليلة وقالت له وهي تبكي: ما دام الأمر كذلك فإني سأذهب نهاراً غداً إلى بيت أهلي وأعلمهم بما ظهر من الزير في حقي فهم يقتلوه لأني لست أأتمنه على نفسي إذا بقيت عندك، لأنه لا بد أن يغدر بي لأن عيونه محمرة علي وأنت بعد كل هذا ليس لك نخوة ولا ناموس. فقال: اذكري الله يا جليلة ودعينا من هذا، فكيف أسمح بقتل أخي وهو من لحمي ودمي ولا سيما أنه شديد ومن أشجع الناس فإذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث فيَّ الناس. فقالت: لا بد من قتله على طريقة نمير هذه وهو أن نأخذه إلى بير صندل السباع وتدليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذٍ تقطع الحبل فيسقط في البير ويموت ولا يعلم به أحد. وأشارت تقول:

ما قالت الجليلة بنت مرة		ودمعي فوق وجناتي غراره
أخوك الزير ما هو كثير فالح		يلعب مع وليدات الصغاره
أخوك الزير شوفه مثل الضبع		كما المجنون يلعب بالحجاره
يا ريته ما يشوف الخير دائم		كأنه شبه ضبع في مغاره
يا ليت الزير ينقص من حداكم		ولا يبقى تظهر له خباره
ألا يا حيف هذا من ربيعة		وتعدوه ببنات الأماره
ترى خمسين خليفة مثل أبيك		أمارة من أمارة من أماره

يبقى الزير هو بدل فيكم ليته لا يطلب من الحراره
قتل الزير أحسن من حياته ولا نهتك ما بين الأماره
اقتل هل ردى لا عاش عمره وأهيفه في حسامك مثل ناره
أنت ابن عمي نور عيني وشوري إليك ما هو فشاره
ما قالت الجليلة بنت مرة وناري عالقة من ذي شراره

(قال الراوي): وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفها في شيء، فلما ألحّت عليه وافقها على ذلك إكراماً لخاطرها فنهض ثاني الأيام وركب جواده وأخذ في صحبته أخوه الزير ومائة من الفرسان وسار بهم إلى بئر صندل وعند وصولهم قال كليب: يا سالم خيولنا قد عطشت فمرادنا أن ننزل ونسقيها وأنت تنزل إلى البئر فتملأ دلواً. فقال: حباً وكرامة يا أخي. فدلوه في حبل وأخذ يملي الأدلية وهم ينشلوا ويسقوا حتى ملأوا الأرض الذي على باب البير وجاءوا بالخيل ليسقوها فتزاحمت على بعضها البعض وأخذت بالصهيل والازدحام فعجز كليب وجماعته عن ردها على بعضها البعض. فسمع الزير وهو بالبير صهيل الخيل وجعيرها فصرخ عليها صوتاً مثل الرعد القاصف حتى ارتجت منه الوديان واضطربت منه قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها. فلما رأى كليب ما فعله أخوه سالم تعجب غاية العجب وندم على ما فعل وفي الحال أخرجه من البير وازدادت محبته عنده ورجع إلى الديار، فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت لكليب: بارك الله فيك أهكذا المفارقة؟ فقال: والله يا جليلة من كان هذا الفعل فعله يحرم الله قتله. ثم حدثها بما جرى وكان يقول وعمر السامعين يطول:

يقول كليب من شعر نفيس قصيدة ما نظمه قط قائل
جليلة اسمعي يا بنت عمي أرى عقلك بهذا اليوم زائل
أأقتله ليشفى اليوم قلبك ومنه قد ظهرت لنا فعايل
سباع الغاب هابت من لقائه كذلك الخيل صيرها جفايل
ثلاث ألوف يلقاهم بصدره من الشجعان فرسان القبايل
تقول اقتله وارتاح منه فقولك ما هو قول عاقل
فإني لا أبيعه بألف مثلك ولو مهما جرى منه من فعايل
أراكِ تطلبي قتله سريعاً فقولك عنه ليس له دلائل
فقولك يا جليلة قول باطل فحاش الزير أن يتبع رزائل
فقَلّي من كلامك لا تعيدي أيا بنت الأماجد والأصايل

فلما فرغ كليب من شعره ونظامه وفهمت الجليلة فحوى كلامه اغتاظت في سرّها ولكنها أظهرت له السرور وقالت له: إن قصدي امتحانك لأرى هل أنت تحبه أو تبغضه لأنه فصيح اللسان ومن أشد الفرسان. وأخذت تمازح كليب بكلام النفاق حتى صفا قلبه وراق. ثم إنها صبرت مدة أيام وبعد ذلك أظهرت عن نفسها أنها مريضة فرقدت في الفراش وقالت لكليب: إني لي حاجة إليك ولا يقدر عليها سوى أخوك الزير. فقال: وما حاجتك؟ قالت: أريد مقدار كأسين من حليب السباع لأنه يقوي الأعصاب وأنا في غاية الضعف والعنا وقد وصفت دايتي هذا عاجلاً لمرضي وقالت إن هذا الدواء يأتي بولد ذكر وأشارت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة كليب اسمع يا أبا اليماما
أنت اليوم ملك البوادي يا ليت ألحق بك يا أمير داما

وتحكم يا ملك شرقاً وغرباً ... من أرض الروم للكعبة دواما
وتحت يدك ألوف من العساكر ... وكم حاكم وكم فيه مقاما
وكم أبراج من ذهب وفضة ... جواهر تشرق جناح الظلاما
ولا لك طفل تحيي فيه ذكرك ... سوى سبع بنات مثل الحماما
أتاني منك سبع بنات اتاني ... ولا جاني منك ذكر غلاما
وقالت دايتي لي يا جليلة ... معي لك علم يبرئ السقاما
لبان لبوى بصوفة احمليها ... تروحي في ذكر حامل قواما
فنادي الزير وأخبره سريعاً ... أدام الله عمرك بالسلاما

(قال الراوي): فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها، صدق مقاله وأرسل في الحال يطلب أخاه الزير، فدخل عليه وسلم عليه وقبل يديه وقال بقلب جسور: أنا عبد مأمور ولا أخالفك بأمر من الأمور. فأعلمه كليب بالواقعة وقال: أريد منك يا أخي أن تأخذ هذا الحق الصغير وتملأه من حليب لبوة. فقال: على الرأس والعين ولكن يا أخي أعطني سيفاً أتسلح به خوفاً من هجوم السباع. فقال كليب للجليلة أن تعطيه السيف، فقالت له: ألا تستحي يا زير أن تطلب سيفاً وأنت في هذه الشجاعة؟ فخجل وأطرق رأسه وسار من قوته وساعته وقد تأكد أنها تريد هلاكه وضرره، وما زال يسير حتى وصل إلى غابة كثيرة الأشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصاه، فبينما هو ينظر من خلف وقدام وإذا بأسد قد ظهر وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر.

فلما اقترب منه قبض عليه الزير ونشله بقوة ساعده وزنده ولوحه بيده مثل المقلاع وخبط به الأرض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا

حتى قتله وأراد أن يحز رأسه وإذا بلبوة قد أقبلت عليه ومن خلفها سبعة أشبال فلما رأت ذكرها قد مات احمرت عيناها فأراد الزير أن يلاعبها قليلاً وقد علم أنها مغتاظة فجعل نفسه أنه خائف منها فركض من أمامها فتبعته وكان قد وصل إلى شجرة كبيرة فطلع إليها وبقيت هي تنظر إليه وتهمهم ثم أقبلت أشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها فوجد لها الزير ثدي مثل الحق فقال: هذا الذي طلبه مني أخي، ثم أراد النزول فقال: إن نزلت تفترسني من رجلي، ثم رمى نفسه من الشجرة فجاء راكباً عليها فقبض عليها من رقبتها وألقى رجليه على بطنها بقوة شديدة حتى لم يعد لها سبيل أن تتحرك من مكانها ثم سحب السكين وهو يضحك عليها وينحرها كما ينحر الجزار الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع رأسها ورأس الأسد بعد أن ربط أشبالها بالحبال وساقهم أمامه كالكلاب، فلما أقبل إلى الحي ولاقته فرسان العرب وأصحاب المناصب والرتب واستعظموا ذلك الأمر واعتراهم العجب. وعند وصوله إلى القصر سمعت الجليلة الضجة فطلت برأسها من الشباك فرأت الزير وهو مقبل على تلك الحالة فالتهب قلبها بنار الغضب لأنها كانت تظن أنه يموت ويهلك. ثم دخل الزير على الجليلة وكان كليب جالساً معها فسلّم عليها وارمى الرؤوس أمامها وقدم الحق لامرأة أخيه وقال لها: هل تجدين شيئاً آخر حتى أقضيه؟ فقالت: بارك الله فيك يا سبع الرجال فإنك تستحق المدح والثناء. وكان كليب لما رأى رؤوس السباع تعجّب من قسوة قلبه وشدة بأسه وقال له: كيف فعلت وإلى أين وصلتِ؟ فأشار الزير بقوله:

يقول الزير قهار المواكب | رماني الدهر في كل المصائب
فلا تسمع أخي قول الأعادي | لأن الصد شوره ليس صائب
يشوروا عليك في رأي وخيم | ليسقونك أخي كأس العواطب
فأهل العقل لا تسمع لأنثى | لأن كلامها لا شك كاذب
فاعلم يا أخي في ما جرالي | بهذا اليوم في وادي الثعالب
وجدت سبع وسط الغاب دائر | كأنه جائع للصيد طالب
فلما شافني حالاً أتاني | وكشر عن سنانه والمخالب
فصحت عليه صيحة جاهلية | فتقدم يا أخي إلى هاجم وطالب
جززته بخنجري فأهوى | على وجه الثرى للأرض قالب
أتتني بعده لبوة مغيرة | فلما شفتها ولثيت هارب
رأيت أشبالها سبعة وراها | فداروا لجهتي من كل جانب
فلما شفتهم جاءوا لنحوي | طلعت لشجرة ذات الشناغب
فداروا حولها فرميت نفسي | فصرت لظهرها بالحال راكب
حززت لرأسها وملأت حقي | حليباً بعد أن نلت المآرب
ورأس السبع واللبوة قطعته | علامة للأعارب والأقارب
وسقت أولادها السبعة أمامي | فلما صرت في وسط المضارب
فلاقتني جميع رجال قومي | وحيتني الأقارب والأجانب
وهذا ما جرى لي في نهاري | وما قاسيت من هول المصائب

(قال الراوي): فلما فرغ الزير سالم من شعره ونظامه وأخوه كليب مع الجليلة يسمعوا كلامه، فغضبت الجليلة من كلام الزير وكيف أنه لمح بشعره عليها، فقالت في سرها لا بد لي أن أعمل على قتله. وبعد ذهابه قالت لزوجها كليب: كيف يعلم أني ساعية في قتله ولم يكن

عارف بما فعله معي، فوالله إن الموت ألذ عندي من الحياة فلا بد لي أن أشنق نفسي وأستريح من جور أخيك القبيح. ثم صارت تصيح وتبكي. فقال كليب: اخزي الشيطان ودعينا من هذا الكلام الآن وأخذ يتلطف بخاطرها ويقول لها: كم مرة رميناه بالأخطار وهو يرجع سالماً كاسباً غانماً. فقالت الجليلة: مرادي أن تسمع مني ما أقوله لك الآن ولا عدت تسمع مني غير هذه المرة، وهو أن تجعل نفسك مريضاً وترقد في الفراش فإذا أتاك أخوك الزير حتى يراك فتقول إنه أصابك مرض شديد ووصف له الأطباء شربة من بير السباع، إذا سمع منك هذا الكلام فأخذته النخوة والغيرة ويذهب في الحال لقضاء حاجتك فإذا راح لا يعود يرجع أبداً من كثرة وجود السباع في ذلك المكان والكثرة تغلب الشجاعة فيفترسوه في الحال وتكون قد بلغت الآمال لأنني كلما تذكرت أعماله أريد أن أخنق حالي والعرض عند الحر غالي، ثم أنشدت تقول من فؤاد متبول:

ألا اسمع لشورى ما أقول لك ... على علم لصحيح أنا أدلك

أخوك هبيل ما يسوى مسلة ... ولو قلع في الجبال وألف تلة

فأرسله غداً إلى بير صندل ... وإن أرسلته لهناك يقتل

ومنه تستريح مدى الدهور ... وتحظى بالمقاصد والحبور

فلما سمع كلامها أجابها إلى مرامها وانقطع عن الديوان ومقابلة الناس وجعل نفسه مريض وأقام بالفراش مدة أيام، ولما شاع هذا الخبر علم الزير بذلك فتشوش خاطره لأنه كان يحبه محبة عظيمة فدخل عليه فرآه راقد في الفراش وهو يئن من قلب حزين، فقال له: سلامتك يا

أخي. ثم جلس قربه وهو يتوجع عليه ويتأسف ويسليه بالكلام فقال له كليب: اعلم أن مرضي شديد وأنا خائف منه وقد وصفت لي الأطباء شربة ماء من بير السباع فمتى شربتها شفيت من هذا الداء وليس لي غيرك يا أخي من يأتيني بها، فإن كنت تحبني أريد منك الآن يا فارس الفرسان وقهار العدا في ساحة الميدان أن تذهب إلى ذلك المكان وتأتيني بالمطلوب والمقصود من بين الأسود. فقال الزير: أبشر يا أمير، ثم نزل من عنده وجاء بقربتين فحزمهما على حمار ثم سار وجد في قطع القفار إلى أن وصل إلى بير السباع وكانت السباع في ذلك الوقت سارحة في البرية سوى سبع واحد كان راقد على حافة البير وهو واضع يديه على فمه أو نائم فقال الزير في سره هذا نائم وعيب علي أن أقتله غدراً، فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجليه ونزل إلى البير من الدرج فملأ القرب واتفق أنه عند نزوله إلى البير شهق الحمار فوعى السبع ولما رأى الحمار هجم عليه وضربه بمخلبه فقتله وجعل يأكله. فلما خرج الزير من البير ووجد السبع قد قتل الحمار وهو يأكله اغتاظ جداً فوضع القرب على الأرض وقصد نحو السبع بقلب كالحديد وقال: ويلك يا مشؤوم كيف تأكل حماري أما علمت ببطشي واقتداري؟ فوحق ذمة العرب لا بد من تحميلك القرب. وكان الأسد قد وثب عليه ونهض برجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على رأسه فدوخته فوقع على الأرض طائشاً فجاء الزير بالحبل وألجمه لجاماً قوياً ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع القرب ورفسه برجله فنهض مثل السكران فقال الزير: يا قليل الأدب الذي يأكل حمير العرب فهو أولى أن يحمل القرب. ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكان

كلما عرج عن الطريق يضربه بالعصا على رأسه حتى طاعه قهراً وجبراً ثم سار وجد في قطع القفار حتى اقترب من الديار فعند ذلك تذكر ما جرى له مع أخيه والأسد وكيف عاد ظافراً منصوراً فجاش الشعر في خاطره فأنشد يقول:

أنا مهلهل فعزمي يفلق الحجرا ... الإنس والجن تخشى سطوتي حذرا
كيد النساء يبقى في عدم ... فخيب الله من يسمع كلام مرا
قال أخوك كليب اليوم منطرحاً ... عالفراش ضعيف الجسم والبصرا
فجئته عاجلاً حتى أسأله ... والعقل في حيرة ممّا عليه جرى
فقلت له كيف حالك أنت أخبرني ... فقال يا مهلهل كيف أنت ترى
أريد شربة ماء أطفي بها ظمئي ... من صندل تزول الهم والكدرا
فسرت حالاً لذلك البير في عجل فنـ ... ـلت قصدي وعدت اليوم مفتخرا
هذه فعالي وكل الناس ترهبني ... حتى الأسود وأهل البأس والأمرا

(قال الراوي): وما زال يقطع القفار وينشد الأشعار حتى وصل إلى الديار وهو راكب على ظهر الأسد غير مبالٍ بأحد لأنه بلغ المقصود والأرب وفعل أفعالاً تعجز عنها فرسان العرب. ولما دخل الحمى جفلت الخيل والجمال واندهشت النساء والرجال لما رأوا الأسد على تلك الحال وكثرت الضجات وتصايحت الأولاد والبنات وسمع كليب والجليلة تلك الضجة فأطلا برأسيهما من الشباك فوجدا المهلهل قد أقبل وهو يسوق الأسد بعصا فبكى كليب لما رآه وقال لابنة عمه الجليلة: هل ينبغي لهذا البطل أن يقتل فقد جاء بالأسد وعلى ظهره القرب وهذا أعجب العجب فاشتعل قلبها والتهب من شدة الغضب حتى كادت

تموت قهراً ثم نزل كليب إليه وقبّله بين عينيه وقال: لله درك يا فارس الميدان وزينة الشبان. وبعد ذلك سأله عما جرى له وكان فأنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ودمعي فوق وجناتي سايل
ذهبت اليوم نحو البير قاصد أجيب الماء يا ابن الأكارم
وجدت السبع قرب البير راقد فقلت بخاطري ذا السبع نايم
نزلت البير أملا منه أشرب وربي بالذي قد كنت عالم
ملأت القربتان وعدت حالاً لأرجع القبيلة والمعالم
وجدت السبع قد أكل البهيمة ضربته بالعصا فعاد نايم
وحملت القرب من فوق ظهره وجئت إليك يا فخر الأكارم
أطال الله أيامك وعزك على طول الزمان وأنت دايم

فلما سمع كليب هذا المقال أجابه على شعره:

يقول كليب اسمع يا مهلهل فما لك من مثيل في العوالم
سباع البر خافت من قتالك وولت في الفلا منك هزايم
سألت الله أن يحفظك دوماً وتحظى بالسرور والغنايم
فقم إلبس ثياباً من حرير وافعل ما تريد يا ابن الأكارم
فمهما طلبت مني يا مهلهل أنا أعطيك والله عالم
أخي ما عاد عندي أعزّ منك وحق الله خلاق العوالم

فلما فرغ كليب من كلامه أنزل الزير القرب من على ظهر الأسد وضربه بالسيف ألقاه قتيل ثم قطع رأسه أمام أخيه وقال: الله أكبر فقد أخذنا بثأر الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار. فأمر كليب الخدم أن يدخلوا الزير إلى الحمام فدخل واغتسل ولبس حلة أرجوان وذهب إلى عند أخيه في الديوان، فقام له على الأقدام وأكرمه

غاية الإكرام وأجلسه في أعلى مقام فزاد اعتباره عند الخاص والعام وارتفعت منزلته عند الأمراء والأكابر واشتهر اسمه بين القبائل والعشائر. وقال له كليب ذات يوم: اطلب يا أخي مهما تريد فإن شئت مدينة أوهبك إياها أو امرأة جميلة أزوجك إياها فمالي جميعه بين يديك فلا أبخل بشيء عليك، لأنك اليوم ساعدي وزندي وأنت الحاكم من بعدي. فقال: لا أريد سوى سلامتك والذي أريد منك أن تأمر لي بصيوان يكون كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع ويكون عندي جماعة من الخدم يقدمون لي ما أحتاجه من الأكل والخمر لأني أريد أن أنفرد عن باقي جماعة الناس وأكون وحدي خصوصاً من كيد النساء، وعندما تشتاق إلي تزورني. فقال كليب: ما هذا العمل؟ فوالله ما عاد لي صبر على فراقك يا مهلهل ولا عدت أسمع فيك كلام الأعادي اللئام، فابقَ عندي في العز والإكرام. فقال: يا أخي قد صممت النية على الارتحال فإن الانعزال أفضل للرجال الأحرار، ولا سيما قد صار على السباع ثار على قتل الحمار ولا بد لي من قتل جميع الأسود أو أن الحمار يرجع ويعود. فضحك كليب من كلامه وتعجب وأمر له بما طلب وقدم له جواداً من أطيب الخيول وجميع ما يحتاج إليه من السلاح والنصول والمشروب والمأكول وأرسل معه عبدين يخدمانه ثم ودعه وسار حتى وصل إلى بير السباع فنصبوا له الصيوان وأقام في ذلك المكان وهو يأكل ويشرب المدام وكان في كل يوم يلبس عدته ويركب جواده ويصيد السباع وكان كلما قتل أسداً يقول: يا لثارات الحمار، وما زال على تلك الحال جتى أفناها وبنى له قصراً من رؤوسهم فلما طال عليه الزمان أخذه القلق والضجر لانفراده عن البشر وكان بينه وبين همام

بن مرة محبة عظيمة ووداد فزاره الأمير همام في بعض الأيام ففرح بقدومه عليه وقال: أهلاً وسهلاً يا ابن العم وترحب به غاية الترحيب وقال له: لقد ضاقت نفسي من الوحشة والانفراد فوالله ما عدت أدعك تذهب من عندي أبداً وكان همام يصرف أكثر أوقاته عنده فينادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الأشعار في الليل والنهار. وما زالا كذلك وهم في بسط وانشراح وطرب وأفراح وشرب المدام وسماع الأنغام مدة ثلاثة أعوام. هذا ما كان من حديثهم في تلك الأيام.

في حرب البسوس بين بكر وتغلب

قال الراوي: وأعجب ما اتفق وتسطر من الأحاديث التي تروى وتذكر هو حديث العجوز الشاعرة أخت الملك تبع حسان الذي قتله كليب كما شرحنا قبل الآن وهي المرأة التي ذكرها تبع لكليب في ملحمته بأنها سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبائل وبسببها يقتل كليب بن وائل، وتثير الحرب بين بكر وتغلب وباقي عشائر العرب. وكانت هذه العجوز من عجائب الزمان وغرائب الأوان ذات مكر لأنها في يوم ولادتها وردت إليها أموال السبعة أقاليم وأمها سمتها تاج بخت لأنها كانت كثيراً ما تأكل من جوز الهند وكانت مع هذه الأوصاف القبيحة جميلة المنظر فصيحة الكلام شديدة البأس. ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة فكانت تسارع الطواشية وتركب الخيل في الميدان وتبارز الأبطال والفرسان، وشاع صيتها في كل مكان وتوارد إليها الخطّاب من جميع المدن والبلدان. فكانت تقول: لا أتزوج إلا من يقهرني في الميدان، فكانت تقهرهم في القتال وتعلّم عليهم في ساحة المجال فاقتصرت عنها الخطّاب وتباعدت عنها الطلاب، وكان قد سمع بخبرها ملك عظيم اسمه سعد اليماني وكان ملك بلاد السرو وابن عم أخوها تبع وبطل أروع ليث صميدع صاحب مدن وبلدان وجيش

وفرسان، فهام قلبه في حبها فركب في جماعة من أبطاله وسار قاصداً ديار ابن عمه تبع ليخطب أخته سعاد، فلما وصل إلى تلك البلاد ترحب به الملك تبع وأضافه ضيافة عظيمة لأنه ملك وأمره نافذ في القبائل، فلما كان في اليوم الثالث قال سعد لتبع: إعلم يا ابن العم بأني حضرت من بلادي لأخطب أختك سعاد الدرة المصونة والجوهرة المكنونة فلا تردني خائباً فهي ابنة عمي ومن لحمي ودمي وأنا أحق بها من كل أحد. فقال تبع: إني أرغب في ذلك غير أنه كما لا خفاك بأنها لا تتزوج أحداً مهما كان إلا بمن يقهرها في الميدان. فقال: إني ما أتيت إلا على هذا الشرط. فعند ذلك دخل عليها أخوها وأخبرها بقدوم الأمير سعد ابن عمها وأنه قد جاء ليخطبها ويتزوجها بعد أن يبارزها ويحاربها، فأجابته إلى ذلك المرام وفي ثاني الأيام اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركبت على ظهر جوادها وبرزت إلى الميدان ومحل الضرب والطعان وكان الأمير سعد قد ركب حصانه وبرز إلى الميدان والتقاها بقوة قلب وجنان وأخذا يتقاتلان نحو ساعة من الزمن وكان الأمير سعد صاحب نخوة وحمية من أشد فرسان الجاهلية فحاربها حتى أتعبها ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة. وبعد ذلك تزوجها وأقام الحفلة سبعة أيام ورجع بها إلى بلاده وكانت قد أخذت معها جميع ما تملكه من أمتعة وأموال وعبيد وغلمان، وأقامت مع زوجها في أرغد عيش وأنعم بال إلا أن كليب قتل أخاها تبع كما سبق الكلام، فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر وتنغص عيشها وتمرمر وقالت: لا بد لي من المسير إلى تلك الديار وأقتل كليب الغدار، فإذا قتلته أطفي ناري وأكون قد أخذت بثأري. فأقامت مكانها وكيلاً يحكم بالنيابة عنها وركبت هي وزوجها

وبناتها وأخذت معها عبدين وما زالت تقطع البراري والآكام حتى وصلت إلى بلاد الشام، فسألت عن رحلة بني مرة فأرشدوها إليها، فلما صارت هناك قصدت الأمير جساس دون باقي الناس ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الأمراء والأعيان، فتقدمت إليه وسلمت عليه ودعت وترحمت، وبأفصح لسان تكلمت. وقالت له: أدام الله أيامك ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك وبلغك أربك ومناك ونصرك على حسادك وأعدائك. فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسألها عن حالها، فقالت له: إني شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادة والسادات والأكابر، وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك فأتيت إلى دارك حتى أعيش في جوارك وأكون مشمولة بأنظارك. ثم إنها بعد هذا الثناء والمديح أشارت إليه بهذا الشعر الفصيح:

تقول سعاد من قلب موجع	زمان السوق أبقانا دلائل
وبعد غلانا صرنا رخاصاً	وبعد الكثر قد صرنا قلائل
وبعد العز قد صرنا أذلا	وبعد السمن قد صرنا هزايل
فهذا الدهر ما له قط صاحب	فهذا مستقيم وذاك مائل
وذا يبكي وذا يضحك ويلعب	وذا يندب عياله والحلائل
فسبحان الذي قدر علينا	بغربتنا وتشتيت الشمائل
فبعد أن كنت في خير ونعمة	دعاني الدهر كالطلاب شاتل
أدور على المناصب والأمارا	وأنزل في القرايا والمدائن
سمعت بذكركم يا آل مرة	ثلاث شهور لي عنكم أسائل
أيا جساس يا فخر البرايا	ويا كهف اليتامى والأرامل

قصدتك لا تخيب فيك ظني أيا ابن الأماجيد الأصائل
فاجبر خاطري ربي يجبرك ويعطيك السعادة والفضائل
فكم أوهبت من مالٍ ونوق وكم فرقت من خيل أصايل
فأنت اليوم بين الناس فرداً ثناه مشاع في كل القبائل
عديم المثل ما بين الأمارا وقد تفاخرت عربان بالقبائل
عساك اليوم تنعم لي بمالٍ ولا تصغي إلى واشٍ وقائل
فارجع بالغنائم والعطايا وبالخيل المسومة الصواهل

فلما فرغت العجوز من شعرها ونظامها وفهم جساس فحوى كلامها قال لها: أهلاً ومرحباً، الأرض أرضي والديار دياري وأنت نزيلتي وفي جواري فكل من تعدى عليك قتلته. ثم أشار يترحب بها ويقول:

قال جساس بن مرة يا عجوز مرحباً بك بلا بطا
مرحباً بك مرحباً بك مرحباً عدد ما مشت الركاب بالوطا
في قدومك حلت البركة لنا فأبشري بالخير مع كثر العطا
اسرحي ثم امرحي في حينا ما أُغيظك لو بدا منك خطا

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من كلامه دعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء، وقالت في سرها: لقد نلت المراد بعون رب العباد. وأقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في إكرامها وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم في محبة ومؤالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة، فما هان عليها ذلك الأمر فأخذت تلقي الفتنة والفساد بين الأمراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال، ولما اشتدّ الأمر اجتمع كل أكابر الناس عند الأمير

جساس وأخذوا يشكون من بني تغلب ومن سوء معاملتهم وأنهم يعتدون عليهم في أكثر الأوقات بدون سبب وهذا كله من يوم ما قتل كليب السبع اليماني وامتد ملكه في الأقطار، فابتدأ يجور ويظلم ولا يحسب حساب أحد وهكذا قومه تفعل كفعله. وكان مرادهم بهذا الكلام أن يحمسوا الأمير جساس ويهيجوه على قتال كليب ولكنه لم يصغ لهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم إنه من الصواب أن أجتمع أولاً مع ابن عمي كليب وأعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا فإن وجدت كلامه قاسياً يكون هو السبب في تقويتهم وإن أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا.

(قال الراوي): وما زالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر إلى مسامع الأمير كليب وبلغه أن بني مرة هم أصل ذلك الخصام وأنهم كل يوم في جميعات واستعدادات فضاق صدره وتكدر وأرسل أعلم جساس بذلك الخبر طالباً منه أن يبادر الحال بقصاص المذنبين وتوقيف حركات البكريين وإخراج العجوز من القبيلة التي كانت سبباً لهذه الورطة. فاغتاظ جساس من ذلك وتأثر وتأكد عنده كلام قومه وعلم أن أصل ذلك كله من كليب، فلم يجبه بجواب ولا بخطاب وأخذ جساس من ذلك اليوم يجمع الجموع ويفرق على قومه السلاح ويقويهم بآلات الحرب والكفاح. فبلغ ذلك الأمير كليب فازداد كدره واحتار في أمره وحس بزوال ملكه وكان تذكر أخاه الزير الفارس النحرير فركب من يومه في جماعة من الفرسان وقصده إلى بير السباع فوجده جالساً على مائدة المدام مع ابن عمه الأمير همام وهما يناشدان الأشعار ويتحادثان

بالأخبار، فنهضا له على الأقدام وأجلساه في أعلى مقام، وفرح الزير بقدوم أخيه لأنه كان له مدة طويلة غائباً عنه غير عالم بأن مجيئه لم يكن ناتج إلا عن سبب ضروري جداً. وبعد أن جلس قليلاً قال كليب للزير: اعلم يا أخي أن سبب مجيئي إليك أولاً لأجل المشاهدة، وثانياً حتى آخذك إلى القبيلة وأقيمك ملكاً مكاني لأني طعنت في السن ولم يعد لي طاقة على معاطاة الأحكام ولا سيما وقد تغيرت الأحوال ووقعت بين القبيلتين النزاع والجدال، فاشتغل مني القلب والبال، فقم معي الآن يا سيد الفرسان. فقال الزير: والله لقد اشتغل بالي بهذا القتال. فأنشد كليب يقول:

أخي سالم اسمع ما أقول لك	ففكرك ديره والذهن ليا
أراك اليوم في زهوٍ ولهو	ولا تدري بما قد حلّ فيا
بنو قيس قد وقعوا بحلفٍ	وجساس نوى يركب عليا
فقم وشد عزمك يا مهلهل	لأنك أنت جبار عتيا
وإلا راحت البلدان مني	وصرنا معيرة عند البقية

(قال الراوي): فلما فرغ كليب من شعره، ضحك الزير حتى استلقى على ظهره. فقال كليب: وما هو ضحكك؟ قال: لقلة عقلك. قال: أنا قليل العقل؟! قال: لو لم تكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد أن نظرت القصر هو أمامك. قال: وما يكون هذا القصر؟ قال: هذا قصر قد بنيته من رؤوس السباع الذين قتلتهم بثأر الحمار، ومع كل ذلك أنت ملك عظيم وصاحب ولايات وأقاليم فكيف تقول إنك خائف وفزعان وأخوك الزير فارس الفرسان، فكن في أمان واطمئنان من نوائب

الزمان فإن كنت بثأر الحمار الذي ليس له قدر ولا مقدار قد بنيت قصراً من رؤوس السباع، ألا أبني من رؤوس الأعادي مدائن وضياع وقلاع وحصون؟ فاذهب بالسلامة ولا ترتاع. ثم أجابه على شعره يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... أنا لي في الحرب عزماً قويا
سباع الغاب خافت من قتالي ... وتخشاني ولم تقدر عليّ
فاذهب يا كليب ولا تبالي ... واحكم بالقبائل بالسوية
فإن جارت بنو بكرٍ وخابت ... فلا أترك منهم أخي بقية

فلما سمع كليب شعره احتار من فعله وندم على مجيئه ثم كرر السؤال وطلب منه أن يسير معه خوفاً من حدوث أمر من الأمور، فقال الزير: سر أنت أولاً وأنا سأتبعك فيما بعد. فقال: لماذا لا تسير الآن؟ قال: لا خفاك لما حضرت إلى هذا المكان قتلت جميع السباع ما عدا سبعين أو ثلاثة فمتى قتلتهم أدركتك في الحال إلى الأطلال. فعند ذلك ركب كليب جواده وسلم أمره للواحد القهار إلى أن وصل إلى تلك الدار وهو في قلقٍ وافتكار. هذا ما كان من أمر كليب، ويرجع الكلام والسياق إلى حديث سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فإنها لما أثارت الفتنة بين القوم وصار لها عند بني مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول أخذت طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر، وخفقت الجميع في بعضه البعض وعمدت إلى ناقتها الجربانة وأخذت تطلي أجنابها وتدهنها بذلك الطيب وأمرت بعض العبيد أن يأخذها إلى المرعى ويمر بها قرب صيوان جساس في الصباح والمساء، وأوصته إذا سأله أحد عنها وعن سبب رائحتها يقول لا أعلم وإنما مولاتي تعلم. فأخذ الناقة ومر على ذلك المكان فعبقت رائحة الطيب

فاستنشق جساس الرائحة وكانت ذكية جداً فتعجب وكان قد نظر إلى العبد وتلك الناقة فأمر بإحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ولما حضر وإذا رائحته كريهة جداً، فسأله عن تلك الرائحة فقال: هي من الناقة. فازداد تعجباً وسأله عن سبب ذلك فقال لست أعلم يا مولاي إنما مولاتي سعاد الشاعرة تعلم ذلك فقال جساس: هذا غريب، فاستدعى العجوز إليه فحضرت ثم سألها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت: لا خفاك أطال الله عمرك وأبقاك، إن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خواص غريبة يا ابن الأجواد، فإن بعرها من المسك وعرقها من الزباد. فتعجب جساس غاية العجب وقال في نفسه: تبارك الله رب العالمين، فلا بد لي من أخذ هذه الناقة فأفتخر بها على جميع الملوك. فقال لها: هل تبيعيني إياها يا حرة العرب وأنا أعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب؟ فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت: والله هذا الحساب الذي كنت أحسبه فإني ما هاجرت من بلادي إلا لأجل هذه الناقة وكلما نظرها أمير أو ملك يطلبها وما دام الأمر كذلك فإني سأرحل من عندك. ثم بكت من قلب حزين وأنشدت تقول:

تقول سعاد من قلب موجوع ... سقاني الدهر كاسات الحمام
ضنى مني الفؤاد وغاب نومي ... عمى بعلي وقد زادت سقامي
أنا حرمة لي يد قصيرة ... ولا لي قيمة بين الأنام
وهذه ناقتي قد شتّتني ... عن الأوطان يا ابن الكرام
فكم من سيد جاء يشتريها ... فما نالوا بها نيل الكرام
وقد جئنا لكم والتجينا ... وقلنا قد حظينا بالسلام

وأنـت تـريـد أن تـأخـذهـا مـنـي فـعـاد رجـوعـنـا أشـهـى الـمـرام

فلما فرغت من كلامها أخذ جساس يطيب بخاطرها ويقول لها: إن كلامي معك هو على سبيل المزاح فناقتك مباركة عليك وأنت المعزوزة عندنا، فقالت من حيث ذلك أريد أن تجعل ناقتي دون باقي النوق والجمال لأنها قد تربت بالدلال وأريد مرعى لأنه أليق بها. فقال: أرسلها إلى المراعي مع نوقي وجمالي، فقالت: إنها لا تأكل إلا من الرياحين وزهر البساتين. فقال: إنه ليس لنا كروم ولا بساتين. قالت: وهذه الكروم التي بجانب القبيلة من هو صاحبها؟ قال: هي لابن عمي كليب زوج أختي الجليلة وهمام متزوج أخته ضباع. قالت: ما دام أنكم أهل وأقارب وأنت ملك نظيره فلماذا يكون كليب أعظم منك؟ فقال: إنه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاعته العباد. فلما سمعت هذا الكلام قالت: والله لقد أخطأت وبئس ما فعلت، فإني تركت البحر وجئت إلى الساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس. فاغتاظ جساس وحس وقال: ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب فإنك قد خرجت عن دائرة الصواب وباديتنا بقلة الأدب أهذا جزاء المعروف والإحسان؟ فقالت: لا تغضب ولا تغتاظ وما قولي هذا إلا من سبيل المحبة. فكيف يكون ابن عمك وصهرك وزوج أختك ويملك على هذه الأرض العظيمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمة؟ أهكذا يكون الأهل وأبناء الأعمام أيها الملك الهمام؟ فقال جساس: وذمة العرب وشهر رجب لقد تكلمت بالصواب وأنا من الآن وصاعداً لست أحسب له حساب، لأنه قد اغتر وتمرد ولا عاد يحسب حساب لأحد، وأنا لا بد لي أن أطالبه أن يقاسمني على أملاك المملكة وإلا ألقيه في

التهلكة فروحي وأطلقي ناقتك لكي ترعى في أحسن البساتين والمرعى.
ثم أنشد وقال:

يقول جساس شعراً من ضمايري ... فدمع عيني على الوجنات طاف
والنار في مهجتي قد أحرقت كبدي ... من جور قوم ما لهم إنصاف
قولك صحيح ما لنا عنده قيمة ... ولا كلام ونحن من الأشراف
سبعة أقاليم ملك تبع حازها ... وعلى المدائن والقرايا طاف
والكروم والنحل والأثمار أجما ... حاز الجميع من البلدان والأطراف
روحي يا سعاد خلي ناقتك ترعى ... بين الكروم ولست منه أخاف

(قال الراوي): فلما انتهى جساس من شعره ونظامه فرحت العجوز وانشرح صدرها فقبلت يده وخرجت من عنده وقالت لعبدها: خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحي كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الأشجار وتأكل الأغصان وإذا اعترضكم أحد فاشتموه وسبوه وإذا اقتضى الأمر اقتلوه ولا تخافوا. فقالوا: سمعاً وطاعة، ثم أخذوا الناقة وساروا بها إلى ذلك المكان.

(قال الراوي): وكان هذا البستان كأنه روضة جنان كثير الأشجار والفواكه والأثمار، وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن منتزهات الدنيا وكان لا يسمح لأحد أن يدخل إليه إلا هو وعياله فقط. فلما أخذ العبيد الناقة دخلوا بها بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقلعوا الزهور ويكسروا أغصان الشجر وكانت الناقة تأكل العرايش وأثمار الكرم وكان كليب قد أقام حارساً يحرسه اسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك الفعال هجم على العبيد بالعصا وقال لهم: اخرجوا يا كلاب من البستان قبل أن يحل بكم الهوان. فشتموه وسبوه ثم ضربوه فهرب من بين

أيديهم وجاء إلى كليب وأعلمه بواقعة الحال فاغتاظ غيظاً شديداً وجاء إلى ذلك المكان ومعه أربعة غلمان فرأى العبدين أحدهما جالس على سريره أي الذي كان يجلس عليه وقت النزهة والآخر دائر مع الناقة بين الكروم والزهور وهو يسب الأمير كليب ويشتمه، فعند ذلك تراكضت غلمان كليب على العبيد لتقبض عليهما فتركا الناقة وهربا. فأحضرت الغلمان الناقة أمام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان وكانت عبيد العجوز تراقب عن بعد ما جرى على الناقة فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجعوا على الأعقاب وأعلموا مولاتهم بما جرى وكان وكيف أن غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان فقالت: الآن بلغت مرادي وأخذت ثأري من الأعادي. ثم أمرت العبد أن يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها. فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها إليها وقامت من وقتها ووضعت التراب على رأسها وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواريها وأخذت جلد الناقة وسارت بها لعند الأمير جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الأكابر والأعيان وصارت تندب وتبكي وألقت الجلد بين يديه. فقال: علامك أيتها العجوز وما الذي أصابك؟ فحدثته في القصة وقالت له في آخر الكلام لو كنت أعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتي في حماه حتى يذبحها بل إني اعتمدت على كلامك نظراً لعلمي برفعة مقامك بين أهلك وأقوامك حتى جرى ما جرى بسببك. ثم أنشدت تقول:

تقول سعاد من قلب موجع	أيا جساس غابوا في مزبلك
أتيت اليوم مع أهلي وبعلي	لحيك يا فتى نطلب جملك
نزلنا في جوارك يا معظم	وقلنا ليس في الدنيا مثيلك

فقلت لهم دعوا الناقة ترعى — بغيط كليب تحسبه خليلك
فرحت طلقتهم وسمعت قولك — ذبحها جئت حالاً أشتكي لك
فإن كانت لكم ذمة وحرمة — فانهض يا أمير وشد حيلك
فخذ حقي من الباغي كليباً — ورب العرب مولانا كفيلك

(قال الراوي): فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس تلك القضية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية وقال للعجوز: اذهبي بأمان فأنا أعرف شغلي. فذهبت إلى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها ثم التفت الأمير جساس إلى من حوله من الأمراء وأكابر الناس وقال: انظروا ما فعله ابن عمنا في حقنا وهو صهرنا، فقد أهاننا بهذا العمل وأنا لا بد لي أن أستعد لقتاله في هذا اليوم فإما أن أقتل أو أبلغ الأمل. فقالت له أكابر العشيرة: تمهل يا أمير فإنه لربما لم يعلم أنها ناقة نزيلك ومن الصواب أن ترسل له كتاباً على سبيل العتاب وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه فإن أرسل الثمن واعتذر كان خيراً وإن أبى وامتنع فحينئذٍ تفعل ما تريد. فاستصوب جساس هذا الرأي وكتب كتاباً إلى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وأرسل الكتاب مع عبده أبو يقظان فأخذ أبو يقظان الكتاب وفي طريقه مرّ على تلك العجوز وأخبرها بالقصّة. فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب، فعند ذلك فتشته في ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب، فقرأته فوجدته كتاباً بسيطاً خالياً من التهديد والوعد والوعيد وأضافت إليه كلاماً مغيظاً وهي هذه الأبيات:

أمير كليب يا كلب الأعارب — أيا ابن العم لا تكبر علي
فلازم أذبحك في حد سيفي — وأنت شبيه حرمة أجنبية

ثم طوت الكتاب ووضعته في مكانه، وقام العبد فنهض وركب الجواد وصار حتى وصل ديوان الأمير كليب ودخل عليه وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب، فأخذه وقرأه ولما وقف على معناه اغتاظ غيظاً شديداً وأراد أن يقتل العبد ولكنه كان رجلاً عاقلاً موصوفاً بالحلم والحزم فأطرق رأسه إلى الأرض وتفكر قليلاً ثم قال في سره: لعل الأمير جسّاس كتب لي هذا الكتاب وهو في حالة السكر غائب عن الصواب. فمزق الورقة وأمر بضرب العبد فضرب. وقال له: اذهب يا ابن اللئام إلى عند مولاك بسلام وإلا سقيتك كأس الحمام. فقام وهو على آخر رمق وركب حصانه وسار إلى عند جساس وقال له إنه بحال ما قرأ الكتاب مزقه وأمر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي تم وجرى.

(قال الراوي): فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام فنهض في الحال ودخل إلى خزانة السلاح ولبس آلة الحرب والكفاح وركب ظهر حصانه وانحدف إلى صيوانه وصاح على أبطاله وإخوته وفرسانه فجاءوا إليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال وقال لهم استعدوا لقتال بني تغلب الأنذال وأخذ يكلمهم بهذا الشعر والنظام:

يقول جساس نار القلب مشتعلة　　على الضمائر يا قوم لها لهيب
يا قومنا اسمعوا قولي وأصغوا　　قول صحيح بلا تكذيب
كليب خلى كل أحوالنا عبر　　حكم البلاد مشارق ومغيب
وليس يحسب لنا قدر ومنزلة　　الكل عندهم غنم وهو بينهم ديب
ناقة نزيلي ذبحها ما خشي أحداً　　أجلى إلي دمها شبه الأنابيب
أتت عجوز فألقت جلد ناقتها　　بعدما بكت بدمع سكيب

تنهدت ثم قالت يا ولد مرة ابن عمك كليب عليك يعيب
هكذا كليب يفعل بنزيلك مالك قيمة عنده ولا ترحيب
فقلت لها اصبري يا عجوز علي فأنا لك منه ثمنها أجيب
أرسلت له أبو اليقظان عندي بكتاب ما فيه أساً ولا تعذيب
شق الكتاب وأدمى العبد بضربه ومن كثرة الضرب ما أظنه يطيب
أترضون المذلة يا أهل قومي الذل لا يرضاه سوى كل معيب

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وعرف قومه فحوى قصده ومرامه، فما أحد طاوعه على هذا المرام وقالوا له عن فرد لسان: بئس هذا الرأي وهل يجوز لنا يا أمير لأجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب ونرفع في وجهه السلاح بعد أن صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع حسان واستولى على الأقاليم والبلدان وجعل لنا ذكراً عظيماً في قبائل العربان على طول الزمان؟ فإن كان لك عليه دم أو ثار فدونك وإياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة. فلما سمع كلامه تركهم وقصد بيت العجوز ولما اجتمع بها قال لها: لقد جئت إليك لأرضيك العطايا خوفاً من ازدياد الشّر ووقوع البلايا، فاطلبي ثمن ناقتك لأعطيك إياه ولو كان مهما كان. قالت: أريد واحداً من ثلاثة أشياء. قال: وما هي: قالت: أريد أن تملأ حجري بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم أو رأس كليب بالدماء يعوم. فقال لها: أما ملو حجرك بالنجوم أو بأن الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحي القيوم، أما رأس كليب فأبشري به. ثم قوم السنان وأطلق العنان وقصد حي بني قيس. فقالت العجوز لعبدها سعد: خذ هذا السكين والمنديل الأبيض

واتبع جساس من ورائه فإذا رأيته قتل كليب فأسرع إذن والطخ هذا المنديل من دمه فمتى فعلت ذلك فإني أطلقك لوجه الله تعالى. فامتثل أمرها وتبع أثر جساس. أما جساس فلم يزل سائراً حتى وصل إلى قصر كليب وسأل عنه فقالت له أخته الجليلة: قد ركب الآن وهو يطبع مهره في وادي الحصار الجندل. فقصده حتى التقى به وهو يطبع مهره وكان كليب بدون سلاح ولم يكن معه سوى خيزرانه فقط، وكان كليب دائراً ظهره إلى جساس لأنه كان من عادته دائماً أنه لا يلتفت في أيام الحرب إلى أقل من مائة فارس. فأراد جساس أن يغدره من قفاه ما طاوعته يده على ذلك مهابة ووقاراً فلما وصل وسلّم عليه فرد عليه السلام فرآه متسربل بالسلاح فاستعظم كليب الأمر وقال: علامك يا ابن عمي أراك بالسلاح الكامل؟ قال: مرادي الصيد والقنص لكني لما التقيت بك أعرجت إليك لأسألك سؤالاً واحداً وأعاتبك على ما فعلت. فهل كان لك بساتين وكروم ونحن ما لنا شيء أتت عندنا عجوز شاعرة مع بعل لها ابن عمى ورعت ناقتها في بستانك على تجاهنا فكيف تقتلها؟ أما لنا عندك قيمة ولا اعتبار بهذا المقدار؟ فضرب كليب كفاً على كف من شدة الأسف وقال: والله يا ابن عمي ما عرفت أنها ناقة نزيلك، ثم ذكر عن سوء أدب الرعيان وما فعلوا من الضرر في البستان ومع ذلك فإني أعوض وأعطيها أربع مائة ناقة وإذا أردت أكثر فأعطيها ولا يكون ذلك سبباً للنزاع والخصام بيننا فإننا أولاد أعمام وأصهار. فقال جساس على سبيل الخداع: إني سأرضيها وهو قاصد قتله. ثم قال له: مرادي أن ألعب معك سابقين بالجريدة. فقال كليب: يا جساس أنت راكب ظهر

القسيرة وأنا راكب مهر جاهل. فقال: أنا أسوق أمامك والمهر يسبق الفرس فساق جساس الفرس فتبعه كليب حتى حكمت يمينه وضربه الجريد فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره. فقال كليب: قم يا ابن العم فإن كنت لا تريد أن تلعب غير هذه الجريدة فاسرع واضربني بها فينتهي الحال ثم نزل كليب عن ظهر المهر ومشى أمامه وأما جساس فإنه قد تألم بهذا القدر حتى إنه لم يعد يمكنه القيام وإذا بعبد العجوز أقبل إليه وجذبه من يده فأوقفه وقال: والله إنك من أحقر الرجال ثم أعلمه بحاله وكيف العجوز أرسلته خلفه لأجل تلك القضية فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب وفي يده الرمح وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض يتخبط بدمه. فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم إليه وقبله في لحيته وعارضيه وضمه إلى صدره ووضع رأسه على ركبتيه وقال: سلامتك يا ابن عمي، يا أبا اليمامة فقد حلت بي الندامة، فوالله إني فعلت ذلك بدون عقل ولا تمييز فسامحني على هذا الارتكاب القبيح. فأجابه كليب على حلاوة الروح وقال هذا حكم الإله المتعال ما كان أملي منك أن تباديني بهذه الفعال وتشمت فيَّ الأعداء والأنذال وتفرق بيني وبين اليتامى والأطفال، وما بكائي على مال ولا نوال وإنما بكائي على اليتامى، ولكن لهم رب لا يغفل ولا ينام. وأبكي أيضاً على غدرك فإنك قتلتني بالغدر والعدوان ولست من أقراني في الميدان ولا في ملتقى الفرسان ولكن سيجازيك العادل الديان وسوف

ترى ما يحل بك من الهوان ولا أظن بأنه يصفى لك الزمان بعد الآن. فقم واذهب إلى الخيام وأقري الأيتام مني جزيل السلام ولكن إسقني قبل رواحك شربة ماء لأن قلبي قد احترق من الظمأ. وأشار بهذه القصيدة يقول:

يقول كليب اسمع يا ابن عمي	أيا جساس قد أهرقت دمي
أيا غدار تطعن برمحٍ	ولست أنت في الميدان خصمي
وأشمت الأحاسد والأعاديَ	وباتت إخوتي تبكي وأمي
على ناقة تقتل ابن عمك	أمير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك	ويردي الضد في يوم النزال

(قال الراوي): فلما فرغ كليب من شعره ونظامه فخاف جساس واصفر لونه وارتعش قلبه وقال: والله يا ابن عمي لا يعرف الإنسان ماذا مقدر عليه، ثم إنه رفع رأسه عن ركبتيه وأتى له بماء فأسقاه ثم ركب وتركه وخلاه وهو يركض ويلتفت وراه قاصداً أهله وحماه. وأما عبد العجوز فإنه بعد ذهاب جساس تقدم ليذبح كليب حسب ما أمرته العجوز فلما اقترب منه وجده يجود بنفسه وهو على آخر رمق فتأمل فيه العبد فوجده ذات هيبة ووقار ووجهه يتلألأ بالأنوار فتأخر عنه وخاف منه فنظر إليه كليب ففاق من حلاوة الروح وقال له: من أنت وما هو قصدك ومرامك؟ فأعلمني بحالك. فقال له: لا خفي عنك أنا عبد التبع اليماني فلما قتلته أنت حضرت أخته سعاد العجوز الساحرة إلى هذه البلاد لتأخذ بثأره منك وتطفي لهيب نارها وهي التي ألقت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وأرسلتني لأذبحك وآخذ لها أثر من دمك. فقال كليب: لقد صدقت فقد ذكر لي تبع هذا الكلام ونفذ قوله الآن

بالتمام وهذا تقدير رب الأنام، فأريد منك يا عبد الخير قبل أن تذبحني تفعل معي هذا الجميل وهو أن ترميني بالقرب من هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير لأكتب وصيتي إلى أخي سالم الزير وأوصيه بأولادي ومهجة كبدي وبعد ذلك إفعل ما تريد. فسحبه العبد إلى قرب البلاطة والرمح غارس فيه والدم يقطر من جنبه. فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل على ما أصابه ويتحسر ثم أخذ بيده عوداً وغطه بالدم وأنشد يقول:

يقول كليب اسمع يا مهلهل ... مذل الخير قهار الأسود
على ما حل من جساس في ... طعني طعنة منها يعود
أيا سالم توصى باليتامى ... صغار وبعدهم وسط المهود
واسمع ما أقول يا مهلهل ... وصايا عشر افهم بالأكيد
فأول شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك زينات النهود
وثاني شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك مالاً مع عقود
وثالث شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك نوقاً مع عهود
ورابع شرط أخوي لا تصالح ... واحفظ لي ذمامي مع عهود
وخامس شرط أخوي لا تصالح ... فإن صالحت لست أخي أكيد
وسادس شرط أخوي لا تصالح ... وقد زادت نيران الوقود
وسابع شرط أخوي لا تصالح ... واسفك دمهم في وسط بيد
وثامن شرط أخوي لا تصالح ... واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط أخوي لا تصالح ... فإني اليوم في ألم شديد
وعاشر شرط أخوي لا تصالح ... ولا قد شكوتك للودود

(قال الراوي): فلما فرغ كليب من شعره ونظامه بكى العبد عليه ورثى لحاله ثم تنفس كليب الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من

حلاوة الروح: أين الأحباب والحجاب؟ أين جندي ودولتي؟ أين ملكي وصولتي؟ تباً لحكم مصيره الزوال، فيا ويل الذين يتجبرون على الإله المتعال، ثم قال للعبد: بالله عليك أن تمهل علي قليلاً حتى أتودع عن الدنيا وأكتب لأخي أيضاً هذه الوصية. فقال العبد: اكتب يا مولاي رحمك الله. ثم أخذ العودة وكتب يقول من فؤاد متبول:

يقول كليب من مادة ربيعة	فدمعي فوق خدي كالقناه
جفاني الدهر وأرماني سقيم	فهذا الدهر كم مثلي فناه
خرجت أنا على مهري أسير	فليس بيدي أنا سوى العصاه
فإذا ابن مرة جاء خلفي	يريد قتلي وإبليس طغاه
ضربته بعصاتي فوق ظهره	تقنطر راح من فوق الوطاه
أتى من خلفي عبد غريب	سريعاً أركبه ووقف حداه
فاستعد وجاني في حال سرعة	وناره بالحشا زادت لظاه
فإن لي دبر وجهك يا ابن عمي	يريد الغدر مني بالفناه
فأحكم طعنة فيَّ سريعاً	وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يا مهلهل	عشر أبيات تفهمها الذكاه
أول بيت أقوله أستغفر الله	إله العرش لا يعبد سواه
وثاني بيت أقول الملك لله	بسط الأرض ورفع السماه
وثالث بيت توصى باليتامى	واحفظ العهد ولا تنسى سواه
ورابع بيت أقول الله أكبر	على الغدار لا تنسى أذاه
وخامس بيت جساس غدرني	انظر الجرح يعطيك النساه
وسادس بيت قلت الزير أخي	شديد البأس قهار العداه
وسابع بيت سالم كون راجل	لأخذ الثأر لا تعطي وناه

وثامن بيت يا لك لا تخلي — لا شيخ كبير ولا فتاه

وتاسع بيت يا لك لا تصلح — وإن صالحت شكوتك للإله

وعاشر بيت إن خالفت أمري — أنا وإياك إلى قاضي القضاه

ولما انتهى كليب من كلامه التفت إلى العبد وقال له: افعل الآن ما تريد، فقال: والله يا أمير ما تستحق إلا كل خير وإن يدي لا تطاوعني على ذبحك. فقال: اذبحني لأنني في ألم شديد وعن قريب تأتي إخوتي وباقي الرجال والحريم. فعند ذلك أخرج العبد السكين وانحنى عليه وذبحه من الوريد إلى الوريد ولوث المنديل بدمه ورجع إلى عند سيدته فأعلمها بقتل كليب وأراها دمه ففرحت فرحاً شديداً وصبرت إلى الليل ثم حملت وسافرت بمن معها من تلك القبيلة سراً حتى لا يعلم بها أحد وقالت: لقد أخذت الآن ثأري وطفيت لهيب ناري. هذا ما كان منها. وأما جساس فإنه لما رمى كليب وولى هارب سار حتى وصل إلى قومه وهو في خوف عظيم، أصفر اللون متغير السكون. فسأله أبوه الأمير مرة: أين كنت؟ قال: كنت في البرية فالتقيت بابن عمي كليب فقتلته وزال همي وغمي. فلما سمع مرة هذا الخبر تبدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه كاد يخرج روحه من بين جنبيه وقال: يا عديم الزمان ويا أخبث الأنام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لأجل ناقة حقيرة وصاحبتها سائلة فقيرة، فماذا تقول العرب يا غدار إذا سمعت عنك هذه الأخبار؟ فقد أجلبت علينا الأذى والضرر وفضحتنا بين البشر. وما زال يوبخه بالكلام ويلطمه من خلف وقدام حتى جاءت إخوته وخلصوه من بين يديه وهم يعنفوه ويسبوه ما عدا الأمير همام فإنه

كان عند الزير في تلك الأيام يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهذه الأمور والأحكام. ثم التفت مرة على أولاده وقالت لهم: لقد حلّت بنا المصائب من كل جانب، ما الذي عاد يخلصنا من الزير ليث الوادي وقهار الأعادي؟ فوالله لقطع آثارنا ويعجل دمارنا، ثم إنه بعد هذا الكلام أشار يقول:

يقول أمير مرة من قصيد ... بأن العار ما يمحوه ماح
جنيت اليوم يا جساس حرباً ... علينا في المسا والصباح
وقدت النار في بكرٍ وتغلب ... يعم لهيبها كل النواحي
أيا جساس تقتل ابن عمك ... كليب البرمكي ليث البطاح
أمير ما كان له مثيلاً ... شديد البأس في يوم الكفاح
أيا جساس من قتل ابن عمه ... يبيت الليل يسهر لصباح
فسوف ترى ما يجري بنا ... إذا برز المهلهل للكفاح
فيسلب مالنا قهراً وغصباً ... بأطراف العوالي والصفاح

(قال الراوي): فلما فرغ من هذا النشيد أجابه جساس بهذا القصيد وعمر السامعين يطول:

تأهل مثل أهبة ذي الكفاح ... فإن الأمر زاد عن التلاحي
فإني إن جلبت عليك حرباً ... فإني ليث حرب في الكفاح
فكف عن الملام فلست أخشى ... بيوم الحرب من طعن الرماح
وإني حين تنشر العوالي ... أعيد الرمح في أثر الجراح
تعدت تغلب ظلم علينا ... بلا ذنب يعد ولا جناح
ومالي همة أبداً وقصد ... سوى قتل العدى يوم الكفاح

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من كلامه قال له أبوه: سوف ترى

ما يحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل، فأرسل الخيل ثم صار يبكي ويتأسف ويلطم كفاً على كف، ثم قال لأولاده: الرأي عندي أن نكتف جساس ونرسله إلى الزير وإخوته ليقتلوه بثأر كليب وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتطفى النار وتزول الأحزان والأكدار. فإن المصيبة عظيمة وعاقبتها ذميمة وخيمة. فقالت أولاده: ما هذا الكلام يا أبانا، فهل بعد كليب غير جساس يليق أن يكون ملكاً؟ فإن كنت تحسب حساب المهلهل فما هو إلا كالأهبل وليس له دأب إلا أكل الكباب وشرب الشراب. فقال مرة: العياذ بالله من كيد الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم قال لأولاده: وإن أخيكم همام عند الزير مدة أيام، فنخاف أن يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه.

(قال الراوي): وكان لهمام جارية اسمها رباب فاستدعاها مرة إليه وقال لها: اقطعي البقاع وسيري إلى بير السباع وأعلمي همام سراً بما جرى وتجدد وقولي له أن يرجع بالعجل خوفاً من أن يقتل. فسارت الجارية حتى وصلت إلى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما بالكلام ويشربان المدام ويتحدثان بالكلام. فلما رآها همام وثب إليها وقال: ما دهاك؟ قالت: سر طويل وحزن وعويل. ثم أعلمته سراً بواقعة الحال وطلبت منه المسير إلى الأطلال، فلما وقف على حقيقة الأحوال اعتراه الانذهال وغاب عن الصواب وتبدل انشارحه بالحزن والاكتئاب، فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج الزير من بين الأطناب وكأنه أسد الغاب، فوجدهما يتكلمان سراً ويوميان عليه فعظم الأمر لديه، فسل الحسام وقال ما هو الخبر يا همام؟ فإني أراكم في قلق واهتمام. وأشار يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... أحس النار في قلبي لهيب
فقلبي موجع والجسم ناحل ... ولا ألقى إلى جسمي طبيب
وشاب الرأس مني والعوارض ... فإني صرت في حال عجيب
وأفكر في الزمان وشؤم فعله ... وهذا الدهر يتقلب قليب
أيا همام ألا يا ابن عمي ... فمالك خائف واقف رعيب
فما أبصر الحرمة تقول لك ... تناديك وأنت لها تجيب
أراكم تكتموا الأسرار عني ... كأني بينكم رجل غريب
أراكم في حديث وفي وشاوش ... وبين ذا وذا أمر عجيب
فلا تخل الأمور من الحوادث ... يا همام أعلمني تصيب
وإلا افتحوا لي الباب حتى ... أروح عني بدا قلبي يطيب

(قال الراوي): فلما فرغ من شعره أجابه همام يقول:

يقول همام اسمع يا مهلهل ... فدمعي فوق الخدود سكيب
وناري بالحشا قد أحرقتني ... أحس لها طي الفؤاد لهيب
أقول أنت تسمع يا مهلهل ... بأنك صاحبي نعم الحبيب
فما نحن في وشاوش ... ولا أنت بيننا رجل غريب
أنا وإياك في طرب ولهو ... ولا تحسب حسابات الحسيب
جملنا يا فتى نيت جملكم ... جرى دمه على نحره سكيب

فلما سمع الزير هذا الكلام توقد قلبه بلهيب الجمر وأجابه يقول:

يقول الزير يا همام اسمع ... أن ابن عمي لي نسيب
فما لك علم في وقتك كله ... ولا في القضية لك طليب
فقم اذهب إلى أهلك يا نسيبي ... بلا تطويل من قبل المغيب
فتأتي إخوتي ثم يقتلونك ... ويدعونك على الغبرا كثيب

فما أقدر أن أحميك منهم وأنت محب أيا نعم الحبيب
فوالله ثم والله ثم والله ثلاث أقسام بحلفها الحسيب
فلو جينا ما عيش أكلنا وكاسات شربناه بطيب
لكنت أمد يدي تحت سيفي وآخذ ثار أخوي عن قريب

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال لهمام: أنت من دون بني مرة نديمي وصديقي وزوج أختي ورفيقي ليس عندك علم بهذا المنكر فلا تخف ولا تفزع. فقال همام: لقد جرى القلم يا ابن العم والذي مضى ما بقي يرجع فإما تقتلني عوض عن أخيك أو تأخذ منا ما يرضيك وترفع عنا الحرب والقتال وتتركنا نبقى في الأطلال، فوالله صعب علي هذا الأمر والتهب قلبي بنار الجمر لما سمعت بهذا الخبر المهول، فلا كان جساس المهان. قال الزير: وحق من يعرف الغيب وروح أخي وحبيبي كليب، إني لأرفع السيف عنكم حتى أشفي غليلي منكم ثم أقتلكم عن بكرة أبيكم وأهتك النساء والبنات وأجعلكم مثلاً بين الكائنات، ولو لم تكن زوج أختي وسميري ما كنت أعلمتك بما في ضميري بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال. فسر الآن إلى الأطلال ولا عدت تريني وجهك في الحرب والقتال، فلما سمع همام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان وأومأ إلى ابنه شيبان الذي كان معهما في ذلك المكان أن يسير معه إلى تلك الأوطان. فامتنع عن المسير وقال سأبقى مع خالي الزير. فسار همام وقد عظم عليه الأمر وهو ينفض غبار الموت عن منكبه حتى وصل إلى حلته واجتمع بأبيه وإخوته وأخذ يلوم جساس على فعله وكيف أنه تجاسر على كليب وقتله، وأعلم قومه بما عزم الزير فخاف الكبير والصغير وأيقنوا بالهلاك

والتدبير، واستعدوا من يومهم إلى الحرب والكفاح وجمعوا آلات الحرب والكفاح. هذا ما كان على بني مرة، وأما الزير صاحب الشجاعة والقدرة فإنه بعد ذهابه إلى الديار اشتعلت بقلبه لهيب النار واعتراه الاصفرار فصار يلطم وجهه في يده وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة لأنه كان من الجبابرة السبعة وكان يقول: وحق رب العباد لا بد أن أفتك ببني بكر الأوغاد وأقتل الشيوخ والأولاد. ولما طال المطال وهو على هذا الحال قال له شيبان بن همام: دع عنك هذا الكلام واشرب المدام فإنك عاجز يا خال عن هذه الفعال فمن أنت من الأبطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتباهى على الأمراء وأكابر الناس كأبي همام وعمي جساس ثم أنشد إليه يقول وعمر السامعين يطول:

أنشد شيبان وقال في بيوت ... ودمعي من عيني طال
خالي اسمع ما أقول ... وحط قولي وسط البال
خلي الهرج ووطي النفس ... واترك عنك قيل وقال
تقول تكيد بني مرة ... وتقتل كل الأبطال
غداً يا خالي هم يأتوك ... بخيل كثير ونعم رجال
يظهر خيول عليك تجول ... ودق طبول كما الزلزال
وترج الأرض بطول وعرض ... تروحوا قتلى بضرب صقال
يجيء جساس قوي البأس ... كذا العباس زكي الحال
ويأتي عمر بخيل ضمر ... وصقر ونمر وأبو جفال
يجيء ملك القوم كان ... بيوم الكون كسبع صال
وأخي شيبون بطل مجنون ... وأبي همام إن جاك ومال

وتأتي الشوس وكل عبوس   يخلو الروس تلالٌ تلال

فلما انتهى شيبان من كلامه أجابه الزير على شعره ونظامه:

يقول الزير أواهٌ أواه   يا ابن أختي عقلي زال
يولي غداً الفرسان تجيك   يخوفني من أهل أنذال
أتاريك أنت عدوٌ مبين   كلامك ما خلالي حال
وأنا العربيد بيوم نكيد   للروس أكيد بطعن وعوال
أكيد الشوس تقطع الروس   أنا الجبار فغير محال
وبعد كليب لأبيع الروح   أشلكم بالرمح شلال
وبعد كليب أخلي السيف   طول العمر بكم عمال
وبعد كليب سياج البيض   ما أعتق منكم رجال
وأنت يا ابن أختي اليوم   قطوري عدت بغير مجال
وأبوك أغدي سيفي فيه   وأعشي الرمح من الأبطال

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من إنشاده نهض الغلام ليركب على جواده، ويلحق بأبيه وأعمامه فضربه الزير بجامه ألقاه على الأرض قتيل وفي دماه جديلاً. ثم قطع عنقه ووضعه في مخلاة حصانه ولفها في قربوس السرج وتركها فسار الجواد حتى وصل إلى القبيلة وسار إلى بيت مولاه فلما رأت أم الولد جواد الغلام وهو في تلك الصفة قالت للجارية دونك جواد سيدك، فتقدمت الجارية وأخذت المخلاة فوجدت فيها رأس شيبان فاستعظمت ذلك الشأن وأعلمت بواقعة الحال فطار عقلها لما نظرت رأس ابنها مقطوع فضجت بالبكاء والنواح والعويل والصياح، فاجتمعت عليها نساء الحي من كل مكان. ولما سمع همام الخبر طار من عينيه الشرر فبكى واشتكى وقال لزوجته ضباع: نظرت ما فعل

أخوك فوالله لم يبقَ لي غريم سواه. فشقت ثيابها وسارت عند أخيها المهلهل ولامته على ما فعل وقالت: أتقتل ابن أختك بثأر أخيك؟ ثم أشارت تقول:

تقول ضباع يا سالم علامك   بجاه كليب ما سويت يا بني
بثأر كليب تقتل ابن أختك   وتحرق مهجتي وتزيد حزني
حزنت على كليب وما جرى له   وحزني في صميم القلب مبني
ولكن قد حكم ربي مراده   وربي ما كتبه لي يصيبني

فأجابها الزير بهذه الأبيات:

يقول الزير من قلب حريق   بقتل كليب زاد اليوم حزني
ألا يا أخت قلي من بكاك   ولا تخشين من أمر يعبني
فوالله ثم والله ثم والله   إله العرش منذ أدعو يجبني
فلا بد لي من حرب الأعادي   وقتل كل جبار طلبني

فلما فرغ الزير من كلامه قالت له: لله درك يا سالم يا قهار الأسود القشاعم، لقد زالت لوعتي الآن وخفت عني الأحزان لما سمعت شعرك يا فارس الفرسان وعرفت ما أنت معول عليه من الحرب والطعان وأخذ الثأر وكشف العار، ثم رجعت إلى الديار وهي في قلق وافتكار، هذا ما كان من أمرها.

(قال الراوي): ولما اشتهر كليب ووصل إلى أبيائه الخبر وعلمت بذلك جميع أهله وبناته فمزقوا الثياب وأكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملاح ووضع في الحي العويل والصياح وكسرت الفرسان السيوف والرماح وخرجت بنات كليب من الخدور وهن

مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الأقدام يقطعن السهول والآكام وقدامهن أختهن اليمامة وكان ذلك اليوم مثل يوم القيامة، ولما وصلن إليه وجدن الطيور حائمة عليه فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حواليه ولما قرأن ذلك الشعر الذي كتبه على الصخرة زادت أحزانهن وأخذن يلطمن على وجوههن ثم أقبلت إخوة كليب إلى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والأبطال والفرسان والسادات والأعيان يرثوه بالأشعار وأجروا لهيب نارها سوى البطل الأوحد والسيف المهند والصحصاح الشهير الذي ليس له في ذلك العصر نظير عمها المهلهل الملقب بسالم الزير فسارت هي وأختها إليه وتواقعت عليه وقالت: والله يا عماه ما كأنك حزنان بما جرى علينا وكان من طوارق الزمان يقتل أخيك ملك العصر والأوان ثم ألقت نفسها غميانة في حجره فضمها إلى صدره وقد حار في أمره ولما أفاقت اشتدت عليها الحسرات فأنشدت هذه الأبيات:

مات أبي يا عم من طعن القنا — غدر به جساس ذا الكلب المشوم

وأنت اليوم جالس في صفاك — يا مهلهل بالعجل انهض قوم

يا مهلهل ضاقت الدنيا علي — وسقاني البين كاسات السموم

(قال الراوي): فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهل الأوجاع والآلام فنهض على الأقدام كأنه سبع الآجام وصار النهار في وجهه مثل الظلام وقال لبنات أخيه سوف ترون ما أفعله وأجريه. ثم اعتد بآلة حربه وجلاده وركب ظهر جواده وسار مع البنات يقطع الأراضي والفلوات حتى وصل إلى ذلك المكان فوجده مملوء

بالأبطال والفرسان والبنات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحون ويندبون، فلما رأوا المهلهل قد أقبل فتحوا له طريقاً حتى دخل فوجد أخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه فألقى نفسه عليه وهو يبكي ملء عينيه ويقول: سلامتك يا أمير اليمامة يا صاحب الجاه والكرامة فقد أحرقت قلبي بفقدك فلا كان من يعيش بعدك. ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر فقرأها وقال: وحق الإله المتعال إني لا أصالح إلى الأبد ما دامت روحي في هذا الجسد ثم بكى وتنهد وأرثاه بهذه القصيدة أمام السادات وأكبر العمد وهي من أجود مراثي العرب وأحسن أشعار أهل الفضل والأدب:

كليب لا خير بالدنيا وما فيها ... إن أنت خليتها من يبقى فيها
فيها تنعي النعاة كليباً فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أم مالت روا
ليت السماء على من تحتها وقعت ... حالت الأرض فاندكت أهاليها
الناحر النوق للضيفان يطعمها ... والواهب الميتة الحمرا يراعيها
الحلم والجود كانا من طبائعه ... ما كل اللطافة يا قوم تحصيها
ضجت منازل بالخلان قد درست ... تبكي كليب نهاراً مع لياليها
كليب أي فتى زين ومكرمة ... تقود خيلاً إلى خيلٍ تلاقيها
تكون أولها في حين كرتها ... وأنت بالكر يوم الكر حاميها
غدرك جساس يا عزي ويا سند ... وليس جساس من يحسب تواليها
لا أصلح الله منا من يصالحهم ... حتى يصالح ديب المعز راعيها
وتوالد البغلة الخضرا ندالجة ... وأنت تحيا من الغبرا تاليها
ويحلب الشاة من أسنانها لبن ... وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من هذه المرثاية الغراء وسمعتها السادات والأمراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وما احتوت إليه من الألفاظ الرقيقة والمعاني البليغة الدقيقة وقالوا: والله لقد جاد سالم الزير وفاق على الشعراء والمشاهير بهذا الكلام الذي هو كالدر النضير. ثم اجتمعت الأمراء المقدمين وقالوا للعرب المجتمعين إنه ما عاد ينفع البكاء والانتحاب وإن إكرام الميت دفنه في التراب. ثم أتوا بكليب إلى الديار ودفنوه بكل احترام واعتبار واحتفال ووقار ورثوه بنفائس الأشعار وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالذهب والفضة فكانت من العجب في بلاد العرب زخرفوها بالنقش الفاخر كتبوا على حيطانها أسماء الإله القادر وهي هذه الأسماء التي يتكنى بها رب السماء قد أثبتناها بهذا الكتاب إفادة للطلاب.

أسماء اللّه الحسنى

الله الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الحافظ، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعال، البر، التوّاب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور، جل جلاله.

(قال الراوي): وبعد أن تلوا أسماء الإله القادر وسمعتها السادات ورؤساء العشائر دفنوا الأمير كليب كما تقدم الكلام، ذبح الزير على قبره النوق والأغنام، وفرق المال والطعام على الأرامل والأيتام، ثم جلس

في الديوان وجميع الأكابر والأعيان والأبطال والفرسان وإخوته الشجعان، وقال: اعلموا أيها الأمراء والسادات الكرام أن جساساً أهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا لأخذ الثار وكشف العار من بني بكر الأشرار. فلما سمعوا منه هذا الكلام أجابوه إلى ذلك المرام وقالوا عن فرد لسان: إننا بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك لأن الأمير كليب لا ينتهي ولم تلد مثله النساء. ثم إنهم تحالفوا معه وعاهدوه على كرسي المملكة وبايعوه وأجلسوه، فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة فسارت إلى بيت أبيها مع أهلها وجواريها وكانت جليلة بولد ذكر سوف يأتي عنه الخبر. واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الأقسام بأنه لا يشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثأره بحد الحسام وينتقم من بني بكر أشد الانتقام أو أنه يموت تحت أرجل الخيل ولا يبالي بالويل. ثم أمر الرؤساء والقواد بجمع العساكر والأجناد وأن يكونوا في استعداد للحرب، فامتثلوا أمره في الحال وتجمعت الفرسان والأبطال حتى امتلأت الروابي والتلال وكانت قد انضمت إليه عدة قبائل وأمدوه بالعساكر والجحافل حتى سار في أربعمائة ألف مقاتل وقال: لما بلغ بني بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وحلول النوائب، فجمعوا المراكب والكتائب وسار بهم الأمير مُرَّة إلى الذئاب وهو مكان شهير يبعد ثلاثة أيام عن قبيلة الزير وهناك انضمت إليهم بعض القبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثمائة ألف وأقاموا في ذلك المكان، ولما سمع الزير برحيل مرة وأولاده إلى الديار قال لا بد أن أقتفي الآثار وأفني الكبار والصغار. ثم أمر القائد الكبير بسرعة المسير فامتثلوا ما أمره وفعلوا ما ذكره وفي

الحال دق طبل الرجوع فارتجت منه السهول والمروج وهو الطبل الذي كان لتبع حسان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى ركبت الأبطال والفرسان وركب المهلهل متسربلاً بالسلاح كأنه ليث الغاب وعلى رأسه الرايات والبنود ومن حوله القواد والجنود. فعند ذلك سارت المواكب قاصدة الذئاب وما زال العسكر يقطع البر الأقفر إلى أن أشرف إلى تلك الديار اليوم الثالث عند نصف النهار. ولما قرب وانكشف البيان ورآه الأمير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا وحق الإله القدير المتعال لقد أقبل علينا سالم الزير بالجموع والجماهير والفرسان والمشاهير واليوم تباع الأرواح بيع السماح. وفي عاجل الحال انتخب الأمير مرة ألف من الأبطال وأرسلهم لملاقاة الأعداء في تلك البيداء وكان المقدم عليهم ابنه الأمير جساس وجماعة من علماء الناس. فسار الجحفل طالباً جيش المهلهل ثم فرق مائة ألف أخرى في الصحراء وقدم عليهم ابنه همام وحثهم على الحرب والصدام وأقام هو بباقي العسكر على الجانب الأيسر حتى إذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان. ولما شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والأبطال فقسم عسكره إلى ثلاثة أقسام وتقدم، ولما اقتربت العساكر من بعضها البعض وانتشر جموعها في تلك الأرض حملت الفرق على الفرق وهجم الجيش على بعضه وانطبقوا وقصد المهلهل فرقة الأمير مرة بعشرة آلاف من أهل الشجاعة والقدرة، وفي الحال اشتبك القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وارتجت الوديان والتلال من قعقعة النضال فكان يوماً مريعاً وحرباً فظيعاً يشيب منه رأس الغلام قبل الفطام فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماءً فاترة وفرساناً غابرة. فلله در المهلهل وما فعل في ذلك

اليوم من العمل، فإنه هجم هجوم الأسود وفرق المواكب والجنود ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار ونمرود. وكان كلما قتل فارساً منتخباً يقول: يا لثارات كليب ملك العرب. ويلقي نفسه في مهاوي العطب أملاً بالنصر وبلوغ الأرب وما زال على تلك الحال حتى قتل خمسمائة من الأبطال ولما اشتدت الأهوال تأخرت عنه الرجال خوفاً من الهلاك والوبال وهو يجول ويدور ويهدر كالأسود والنمور، ويقول: كليباً قتيل الجور أين عيناك اليوم تراني وتشاهد حربي وطعاني، فيا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك.

(قال الراوي): وكانت نيران المعامع والحرب والوقائع مشتبكة في ثلاثة مواضع، واستظهرت جيوش المهلهل على أعدائها وبلغت غاية مناها وفعلت باقي الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذا الحال من الظهر إلى غروب الشمس وكان قد قتل من بني بكر أوفى من ثلاثين ألف نفس ومن جماعة المهلهل نحو خمسة آلاف بطل. فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا في الخيام والمضارب ورجع المهلهل وهو قاهر وغالب كأنه أرجوان مما سال عليه من أدمية الفرسان. فاجتمع بالسادات والأعوان في الصيوان فهنوه بالسلامة وقالوا مثلك تكون الشجعان يا زينة الأكوان وجوهرة هذا الزمان. فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والإنعام، ثم أكلوا الطعام وأخذوا يتذاكرون بأمر الحرب والصدام وكان للمهلهل صديق يركن إليه ويعتمد في أموره عليه قوي الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس ابن أيان وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العالية،

فقاتل معه في ذلك اليوم وفتك في صناديد القوم وكان لا يفارق الزير في القتال ويحمي ظهره من غدر الرجال، فقال له المهلهل أمام الفرسان: رأيك ما هو يا ابن أيان في الهجوم على الأعداء اللئام تحت جنح الظلام فإني والله كلما أذكر قتل كليب تتوقد بقلبي النيران وليس لي عنه صبر ولا سلوان. فقال: تمهل يا أمير مهلهل فإن النهار قد اقترب ولا بد لنا من بلوغ الأرب لأن القتال في الليل يجلب علينا الهم والويل فتختلط الأحزاب بالأحزاب ولا تعود تعرف الأعداء من الأحقاب لأن الظلام يحجبنا بعضنا البعض ونتشتت في هذه الأرض. فاستصوب كلامه الزير فقال: هكذا أشارت فرسانه.

(قال الراوي): وبات الجيشان يتحارسان وأوقدا النيران فكانت بنو بكر وباقي قبائل العرب قد باتت في شدة وتعب وأيقن الأمير مرة أنه سيغلب ويقهر من سيف الزير الأسد الجسور، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، تبادرت العساكر إلى ميدان الحرب والكفاح واصطفت الفرق إلى صفوف وترتبت المئات والألوف وتأهب المهلهل للحرب واستعد للطعن والضرب فركب ظهر الحصان وتقدم إلى معركة الطعان وتبعه امرؤ القيس بن أيان وقواد الأبطال والفرسان بقلوب أقوى من الصوان، وكذلك ركب الأمير مرة وبقية الفرق واعتقلوا بالسلاح والدروع. فعند ذلك دقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رؤوس الأمراء والسادات من جميع الجوانب والجهات وهجم كل فريق على فريق وتقاتلوا بالسيف والمزارق والتقت الأمم بالأمم وقام الحرب على ساقٍ وقدم وما مضى ساعة من النهار حتى اشتد لهيب النار

وطلع للقتال الغبار وانذل الجبان وحار وارتفع الصياح وعلا وارتجت أقطار الفلا ولبست الأرض من الدم حللا وعظم بينهم البلا والويل وعاد النهار كسواد الليل وقال المهلهل في ذلك اليوم وما قصر وفعل أفعالاً تبقى وتذكر فإنه اقتحم صفوف الأعادي كأنه ليث الوادي وحال الميامن والمياسر وطعن فيها طعناً يذهل النواظر ويحير العقول والبصائر وهو يقول: يا لثارات كليب مهجة فؤادي ومن كان سندي واعتمادي، ولما طال المطال أشفى غليله من قتال الأبطال قال:

ذهبت الصلح أو تردوا كليباً أو نبيد الحيين نكراً وذهلا
ذهبت الصلح أو تردوا كليباً أو تعم السيوف شيبان قتلا
ذهبت الصلح أو تردوا كليباً أو أزهق الرجال قهراً وذلا

فتعجبت الفرسان من شعره ومقاله واندهلت من هول قتاله وكذلك اندهشت بحق أبطاله، وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وارتحل ودخل الليل وأقبل فعند ذلك رجع الأمير المهلهل وباقي الجيش وجميع أكابر عشيرته وإخوته يتحادثون في ما يجري ويكون. فاستقر الرأي على سرعة الإنجاز والجهاد في الحرب والبراز قبل أن يطول الأمر وتفوتهم الغلبة والنصر. ثم إنهم أكلوا الطعام وباتوا في الخيام ولما طلع النهار وأشرقت الشمس والأنوار تأهبوا للحرب والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيل وتقدمت الفرسان والأبطال إلى ساحة القتال وكذلك فعل الأمير مرة والأمير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر بالعساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وكان الأمير المهلهل في أول الجحفل فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب أقوى من الجبل وهو يهدر

كالأسد ويضرب فيهم بالسيف المهند ويقول: يا لثارات كليب ليث الصدام وزينة الليالي، وكان كلما قتل فارساً يعيد هذا الكلام فقصدته الأبطال من اليمين والشمال وهو يضرب فيه الضرب الصائب ولا يبالي بالعواقب حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الألوف بتواتر طعناته وما انتصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار وكان من الأبطال والفرسان المذكورة كذلك فعل امرؤ القيس ابن أياد وباقي القواد والشجعان، وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار بارتحال فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا إلى المضارب والخيام. وكان قد قتل من عرب جساس في ذلك النهار عشرون ألف بطل كرار ومن عرب المهلهل نحو ثلاثة آلاف بطل. ولما أصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيول وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول كأنه الغول وهو ينشد ويقول:

هلموا اليوم نلتقي يا آل مرة ولو كانوا ثلاثين ألف كرة

وسيف الهند يقطع في يميني فلا تخشى المهالك والمضرة

فاحموا يا بني عمي لظهري فتحظوا بالأماني والمسرة

فكل الناس ترهب من قتالي إذا ما جلت في الميدان كرة

سوف أبيد جساساً وقومه وأسقيهم في حربي كأس مرة

ثم إنه لما حمل على الكتائب والمواكب وأظهر بأفعاله الغرائب والعجائب وقتل كل شجاع غالب.

(قال الراوي): وما زال القوم في حرب وصدام وقتل وخصام مدة ثلاثة شهور حتى أشفى الزير غليله من بني بكر وقتل منهم كل سيد جليل وفارس نبيل وكان عدد من قتلهم في تلك الوقائع نحو مائة ألف

مقاتل بين فارس وراجل. وقتل من جماعة الزير نحو عشرة آلاف بطل. فلما رأى جساس ما حل بقومه من النوائب خاف من العواقب وعلم أنه إذا ثبتوا أمامهم يهلكون هلاك الأبد ولا يبقى منهم أحد. فولى وطلب لنفسه الهرب مع باقي طوائف العرب وغنم الزير غنائم كثيرة وأموال غزيرة ثم رجع بمن معه من الفرسان إلى الأطلال وهو في أحسن حال وأنعم بال ونزل في قصر أخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهادنه وكان يترقب الأوقات للحرب والغزاة. فشكرته اليمامة على ما فعل وقالت لا عدمتك أيها البطل، فإنك أخذت الثأر وطفيت لهيب النار ورجعت بالعز والانتصار. فشكرها على هذا الكلام وقال: وحق رب الأنام لا يشفى فؤادي ولا يطيب لذيذ رقادي حتى أقتل الأمير جساس وأجعله مثلاً بين الناس، وهذا الأمر سيتم عن قريب بإذن الله السميع المجيب.

(قال الراوي): بينما هو يترقب الأخبار ويقتفي الآثار إذ دخل عليه العبد نعمان الذي تقدم ذكره قبل الآن وكان من أصحاب الزير وأصدقائه المشاهير فسلم عليه وتمثل بين يديه فنهض له على الأقدام وأكرمه غاية الإكرام، وبعد أن جلس قال للزير: اعلم يا أمير قد جئت الآن من أبعد مكان أولاً لأهنيك بالانتصار وأعزيك على فقد ذلك البطل الكرار، وثانياً لأعلمك بأنه ظهر لي في المنام من مدة عشرة أيام رؤيا عجيبة تشير إلى أحداث غريبة وهو أنه قام عليك سبعة سنين منحوسة وأيامها عليك معكوسة فإياك من هذا النهار أن تحارب أحداً من ملوك الأقطار بل تجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاح في الوطن فمتى تمت هذه الليالي رافقك السعد والإقبال بإذن الله المتعال. فإن حاربت انتصرت وإن

قاتلت ظفرت وقهرت. فشكره الزير على ذلك الاهتمام وغمره بجزيل الأنعام ومن ذلك اليوم أخذ لنفسه الحذر وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف أيامه بشرب المدام وأكل الطعام واشتهر الخبر في القبائل أن الزير أوقف الحرب مدة سبع سنين كوامل.

(قال الراوي): وكانت بني مرة قد هامت في الأقطار خوفاً من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم بقتل كليب الأسد الغشمشم، وما زال هو وقومه في خوف وحذر من عواقب الأمور إلى أن بلغهم خبر توقيف القتال فزالت عن قلوبهم الهموم والأهوال ورجعوا إلى الأطلال.

هذا ما كان من بني مرة وجساس وأما الزير الفارس الدعّاس فإنه استمر على تلك الحال وهو في أرغد عيش وأنعم بال إلى أن كانت السنة السادسة فركب إلى الصيد والقنص في جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة أيام، ومن الاتفاق الغريب فإن الأمير جساس رأى حلماً في بعض الليالي وهو أنه رقد في قرب صيوانه حوضٌ من الماء فبينما كانت قومه تشرب منه فإذا بذئب كاسر قد جاء إلى الحوض وهو بصفة جمل كبير وله ثمانية أنياب فشرب من الماء ثم ضرب الحوض بنابه فانشق من جانبه وتهور ذلك الماء حتى كادت قومه أن تهلك من شدة العطش والظمأ، ثم رأى النسوان والأولاد بثياب السود والدم جاري مثل المجاري، والجمال تنهش بعضها البعض ودماها تسيل على وجه الأرض. فاستيقظ جساس خائفاً من هول ذلك المنام فاستدعى إليه إخوته وبني الأعمام وقص عليهم ما رأى وأبصر فاستعظموا ذلك الأمر

وقالوا لا يوجد من يقدر على تفسيره سوى المنجمين فإن حسن عندك استدعي عمار الرياحي فإنه يفسره لك على يقين. فأرسل إليه وحضر، وقص عليه ذلك الخبر، فضرب ورسم الأشكال فبانت له حقائق الأحوال، ثم التفت إلى جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم: هذا المنام من عجائب الأيام وهو يدل على أمر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم بوقت قصير وقد أظهر لي أيضاً بأن أخ المهلهل عنده مهر أدهم اسمه عندم قوي العصب والحيل عديم المثال في الحيل فسعد الزير مقرون بهذا الحصان وبه ينتصر في الحرب والطعن فإذا ملكتم هذا الجواد نلتم المراد وأسرتموه في القتال والطراد.

فلما سمع جساس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام وقال لهم: قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما في الحي غير النساء والحصان موجود في الديار وهذه إزالة الغصة. ثم إنه أرسل رجلاً ليكشف الخبر ثم رجع وأخبره بصحة الكلام، فعند ذلك ركب جساس في ثلاثة آلاف بطل وطرق باب المهلهل على عجل وأحاط بساحة الدار من اليمين واليسار فاستعظم بنات كليب ذلك الأمر ولم يعلمن ذلك السبب فطلت اليمامة برأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس: ما هو الداعي يا خالي بقدومك إلى الحي بالأبطال والحي خالٍ من الرجال؟ فقال لها: جئنا بطلب المهر الأدهم المدعو بعندم. فقالت له: أهلاً وسهلاً بك مهما طلبت فلا نمسكه عنك. غير أنه لا خفاك بأن المهر خاصة بعمي عدية فلا يمكننا أن نسمح فيه ثم أشارت تقول:

بكم قد حلت البركة علينا وزال الشر عنا مع نكال
فمهما تطلبوا مني تشوفوا خيولاً مع بغال وجمال

ولكن مهر عمي غير ممكن أسلمه فإن المهر غالي

(قال الراوي): فلما سمع جساس شعرها ونظامها أجابها يقول على كلامها بهذين البيتين:

تعالوا اسمعوا قول اليمامة تقول المهر لا أعطيه غالي
فإني قاصد أخذه سريعاً ولا أخشى بعده ولا أبالي

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من شعره نزل عن ظهر الفرس ودخل إلى الإصطبل فوجد المهر فوضع عليه العدة وركبه وقال لليمامة: قد أخذت الحصان وغداً أطاردكم على ظهره. ثم صار وهو فرحان حتى وصل إلى الأوطان. فقال لأخيه: قد أتيت بالحصان ومرادي أجربه بالميدان. فانتخبوا ثلاثين رأساً من الخيل الصوافن فاركبوهم واكمنوا في عشر مكامن وأنا أمر عليكم أسرع من الريح فاتبعوني في البر الفسيح فإن سبق هذا الجواد بلغنا المراد في الحرب والطراد. فأجابوه إلى ما طلب وأراد وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان أخو جساس القميرة ووقف في آخر كمين وركب جساس ذلك الحصان وأطلق له العنان فسار في تلك القفار أسرع من الطير إذا طار، ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعاً ما عدا القميرة ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وأمر العبيد أن يربطوه بقرب صيوانه ووكل به مائة عبد وقال: لقد أقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد.

(قال الراوي): هذا ما كان من جساس، وأما الزير فإنه عند رجوعه من الصيد استفقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد إلى القصر وسأل اليمامة وأشار يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل بدمع قد جرى مني بداد
يمامة رحت أنا للصيد قانص وقومي وإخوتي ثم الجياد
لنا عشرون يوماً في فلاوة ودرنا من بلاد إلى بلاد
وصدنا طيوراً ووحوشاً كثيرة ودرينا رجعنا للبلاد
وجيت لمهر أخي فما لقيته شرد عقلي وعني عاد غاد
فأين المهر قوطر يا يمامة عدم صبري وفارقني رشادي
أمات المهر أم أحد أخذه من الأوباش والناس الأعادي

فلما سمعت اليمامة شعر عمها أجابته تقول:

تقول اليمامة يا عم اسمع ألا يا عمّ جاؤوا الأعادي
أبى جساس أخذه غصب عني أنا حرمة ومالي من جلادي
فقلت تأخذه يا خال تندم يجوكم غداً على خيل جيادي
فقال غداً ألاقيكم بعزمي وقد زادت غمومي بازدياد
له يا عم ثلاث أيام غايب وقد زاد حزني بازدياد
فقم يا عم شد الخيل واركب بعسكر كأنه رف الجراد
وميل على بني مرة بسيفك واحصد جمعهم مثل الحصاد
يا عمي عدية اليوم يومك يا عزي وفخري واعتمادي
وهاتوا رأس جساس سريعاً أجبر خاطري واشفي فؤادي

فلما فرغت من شعرها ونظامها أجابها الزير يقول:

يقول الزير قهار الأعادي أنا السبع الجسور في كل وادي
غداً لا بد أجد في لقاهم وأحصد جمعهم يوم الجهاد
وآخذ ثارنا من آل بكر وأطفي النار من طي الفؤادي
وآخذ مهرنا المدعو بعندم ويظهر ذكرنا بين العباد

فمن يذهب يقول لأولاد مرة | أتاكم اليوم دباح الأعادي
أتاكم مهلهل مع آل تغلب | أسود الحرب في يوم الطراد
ألا يا آل مرة سوف أشفي | بقتل سادتكم فؤادي
ولا يخفاكم يا آل مرة | بقتل كليب صرتم لي أعادي

فلما فرغ الزير من شعره دخل وجلس في الديوان وجمع إخوته والأمراء والأعيان، وأخبرهم بواقعة الحال وقال لهم ما رأيكم في استجلاب الحصان؟ فقالوا له: الرأي رأيك ونحن طوع يديك. قال: متى كان الصباح تركبوا في ثلاثة آلاف فارس وتكمنوا في وادي الهجين وأنا أكمن في وادي المطلا، وكان هذا المكان يبعد عن بني مرة مسافة ميل. ثم قال لأخيه عدية وأنت قم الآن وغير ثيابك وزيك والبس ثياب ممزقة حتى لا أحد يعود يعرفك واذهب لحي بني مرة وتجلس بقرب صيوان جساس فإذا سألوك عن بلادك ومهنتك فقل لهم: إني من بلاد الصعيد ومهنتي هي سياسة الخيل وأنا قد بلغني أن جساس من محبته في الحصان كل يوم يسلمه إلى سايس فإذا قال لك هل تريد أن تخدم عندي وتسوس هذا المهر فقل نعم حتى إذا تمكنت منه تركب ظهره وتلحقنا إلى ذلك المكان فمتى صرت هناك لا تخف ولا تحسب لهم حساب ولو كانوا بعدد التراب فإني سأبيد جمعهم بعون رب العالمين وآخذ ثأرها من جساس اللعين. فاستصوب رأيه ولبس ثياب ممزقة وتعمم بعمامة والتحف بحرام عتيق وغير زيه وتنكر وسار يقطع البر الأقفر إلى أن دخل حيّ بنو مرة فقصد صيوان جساس وكان قد أقبل الليل فرقد بين أطناب الخيام. ولما كان الصباح جلس الأمير جساس

واجتمعت حوله أكابر الناس ثم وضعوا موائد الطعام وأخذوا يتذاكرون بالكلام. فبينما هم كذلك إذ حانت من جساس التفاتة فرأى عدية وهو على تلك الصفات فأشفق عليه وقال لبعض غلمانه: أطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته. فأخذ له الغلام طبق الطعام وسأله عن بلاده فقال: إنني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة خيل الأماجيد، فقد جار علي الزمان فأتيت من الأوطان قاصداً أهل الفضل والإحسان إلى أن وصلت إلى هذا المكان. فطيب الغلام خاطره وأعلم مولاه بحاله فقال جساس: إذا كان من بلاد الصعيد فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد فدعوه يسوس لنا عندم المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد وإن وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلي وجعلته رئيس إصطبلي. فلما قال له الغلام هذا الكلام دعا لجساس بطول العمر، ثم إنه تحزم وتقدم إلى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال: هذا يومك يا جوادي فقد بلغت الآن مرادي. وكان المهر لما رأى صاحبه عرفه فمال إليه وآلفه، فتعجب جساس وباقي الناس لأن الجواد كان لا يألف أحد من العبيد الموكلين عليه وكان كل من قاربه ضربه بيده ورجله، فقال جساس: وحق رب الأنام إن هذا السائس يستحق الإكرام والإنعام. وكان عدية لما تمكن من المهر ركب على ظهره ثم لكزه برجليه وصاح فسار مثل هبوب الرياح وجد في قطع البطاح كأنه طير بلا جناح. فلما رأى جساس تلك الحال تغيرت منه الأحوال وعلم أنها حيلة قد تمت عليه ولطم على خديه ووجهه وصاح على الأبطال والفرسان وقال دونكم هذا الشيطان فقد احتال علينا وأخذ عنا بالمكر والاحتيال حتى نال طلبه وبلغ قصده

وأربه. فعند ذلك ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتبعوه في تلك السهول وهم يصيحون ووراءه يجدون في قطع الفلاة إلى أن وصل إلى ذلك الوادي النذير فوجد أخاه الزير وهو كامن هناك في جماعة من الأبطال صناديد الرجال، فأعلمه بواقعة الحال فقال: خذ حذرك الآن فقد أتتك الفرسان من كل جانب ومكان. فتبسم المهلهل وقال: سوف ترى ما أفعل. ثم إنه نزل عن ظهر حصانه وأعطاه لأخيه وأخذ المهلهل الأدهم ووضع عليه عدة جواده ثم ركب وتلملم وإذا بالخيل والمواكب قد حاطت به من كل جانب فصاح عليهم وحمل بقلب أقوى من الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه ليث الآجام فطير الرؤوس عن الأجسام وفتك فيهم فتك الذئاب بالأغنام، وفي أقل من ساعة أدركته بقية الجماعة الذين كانوا مكمنين في وادي الهجين فانصبوا عليهم كالشواهين من الشمال واليمين وكان قد وصل الخبر إلى جساس فأخذه القلق والوسواس فركب بباقي الأبطال ومن يعتمد عليهم من الرجال وقصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وكثر القيل والقال وتزلزلت الأرض من هول القتال وكانت واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الأيام القديمة انهزم فيها جساس أقبح هزيمة وغنم المهلهل غنيمة جسيمة لها قدر وقيمة ورجع إلى الديار بالعز والانتصار فالتقته النساء بالدفوف والمزامير ثم طلع إلى القصر وهو منشرح الصدر فشكرته بنات أخيه على ما فعل وقلن لله درك من بطل فقد أخذت الثار وطفيت من القلوب لهيب النار فالله يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك

وأعاديك، فشكرهن على ذلك الكلام وبعد أن خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام ثم دخلت أمه فقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصار وطلبت منه أن يرفع عن بني مرة السيف البتار فاستقبلها بالوقار والاعتبار وقال لها: والله إني لا أصالحهم يا أماه حتى يعود كليب إلى قيد الحياة، ثم تذكر تلك الوقعة وما جرى له في تلك الأيام مع القوم فأنشد يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... وقلب الزير قاسي ما يلينا
وإن لان الحديد ما لان قلبي ... وقلبي من حديد القاسينا
تريدي يا أمية أن أصالح ... وما تري بما فعلوه فينا
فسبع سنين قد مرت علي ... أبيت الليل مغموماً حزينا
أبات الليل أنعى في كليب ... أقول لعله يأتي إلينا
كان كليب في رؤوس المعلا ... تخشاه ذئاب الجائعينا
أتتني بناته تبكي وتنعي ... تقول اليوم صرنا حاسبينا
فقد غابت عيون أخيك عنا ... وخلانا يتامى قاصرينا
سللت السيف في وجه اليمامة ... وقلت لها أمام الحاضرينا
وأنت اليوم يا عمي مكانه ... وليس لنا بغيرك معينا
وقلت لها ما تقول ... أنك عمك حماة الخائفينا
كمثل السبع في صدمات قوم ... أقلبهم شمالاً مع يمينا
فدوسي يا يمامة فوق رأسي ... على شاشي إذا كنا نسينا
فإن دارت رحانا مع رحاهم ... طحناهم وكنا الطاحنينا
أقاتلهم على ظهر المهر ... أبو حجلان مطلوق اليمينا
فشدي يا يمامة المهر شدي ... واكسي ظهره السرج المتينا

وهـاتـي حـربـتـي رطـلـيـن وأزود وحـطـيـهـا عـلـى عـدد مـتـيـنـا
ونـادي عـلـى عـديـة وكـل قـومـي صـنـاديـد الـحـرب الـمـانـعـيـنـا
ونـادي إخـوتـي يـأتـوا سـريـعـاً لـنـلـقـى جيش بـكـرٍ أجـمـعـيـنـا
فـنـادتـهـم أتـوا كـأسـود غـاب وقـالـوا قـد أتـيـنـا يـا أخـيـنـا
ويـأتـوا يـحـرسـون الـلـيـل كـلـه وقـضـوا الـلـيـل كـلّـه سـاهـريـنـا

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره الجميع على مقاله وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أمر الزير قومه بالاستعداد للحرب فركب ظهر الجواد وتبعته الفرسان والقواد وقصدوا بني مرة بقلوب قوية وهمم علية فالتقاهم جساس مع إخوته وأهله واشتبك بهم القتال وعظمت الأهوال وابتلت بني مرة بالبلاء والويل وكان الزير يحصد فيهم بالنهار والليل واستمر القتال بين الفريقين مدة سنتين حتى فقد من بني مرة في هذا الحرب الأخير نحو اثني عشر ألف أمير عدا السادات والأكابر والجيوش والعساكر وكان الزير يأمر قومه بقطع الرؤوس ووضعها في المخازن لأنه كان قد أقسم بالله العظيم أنه سيملي البيوت من جماجمهم وباقي الأماكن، فلما طال المطال واشتدت على بكر الأهوال اجتمعت أكابر الناس مع الأمير جساس وأخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون لأن الزير لا يقبل منهم فدى وجميع وسائطهم التي استعملوها في توقيف الحرب راحت سدى. فقال سلطان لأخيه جساس: اعلم يا أخي بأن الزير في كل صباح يمر على قبر أخيه فيجيبه بالسلام ويقول له: قد قتلت في ثأرك فلان وفلان فهل اكتفيت أم لا. فلا يجيبه أحد فالرأي عندي أن تنتخبوا رجلاً وتضعوه داخل القبة بحيث لا يراه أحد فإذا مر الزير على

القبر حسب عادته وسأل أخاه ذلك السؤال فيجيبه الرجل بصوت خفيف من قلب ضعيف لقد اكتفيت يا أخي فأغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم وإياك أذية البشر فإن ذلك مما يجلب علي الضرر. فإذا سمع هذا المقام فلربما ينطلي عليه الحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال. فاستصوب جساس وباقي الأعيان رأي الأمير سلطان.

(قال الراوي): وكان في القبيلة رجل فقير الحال عديم الأشغال فاستدعاه جساس إليه وقص ذلك الكلام عليه وقال له: إذا بلغنا الأرب وأجبتنا إلى الطلب أعطيتك مهما تريد من المال والعبيد، فقال: الأجرة مليحة ولكن الطريقة خطيرة قبيحة. فأخذ جساس يحثه بالكلام ويرغبه في هذا بالشعر والنظام:

على ما قال جساس بني مرة ... ألا يا فارغ الأشغال إسمع
فلي عندك حاجة صغيرة ... فتقضيها سريعاً ثم ترجع
فإن الزير لاشانا جميعاً ... وفرّق جمعنا في كل موضع
ولا يقبل رجاءً ولا عطايا ... وعن الأفعال ما كان يرجع
بثأر كليب صرنا شرايد ... أعدم في الوغى كل ليث أروع
يمر في قبره في كل صباح ... ويزعق بصوت للأكباد يصدع
يقول ألا نعمت أخي صباحاً ... أيكفي ما قتلت أم تريد أرجع
فاذهب واختبئ في القبر حالاً ... إذا صاح المهلهل أنت تسمع
إذا سألك أحارب أو أصالح ... أجبه أنت محفوظ ارجع
أنا رضيت منهم نلت ثاري ... وأنت بقتلهم لا عدت تطمع
لعله يظن إنك أنت أخيه ... فيصفح عن مآثمنا ويرجع

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من هذا المقال قال له عديم

الاشتغال: على الرأس والعين. ولما كان الليل حفروا سرداباً وصلوه إلى القبر وأدخلوا ذلك الرجل فيه. ولما كان الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعه الأبطال والفرسان ومر على قبر أخيه حسب عادته ونادى بصوتٍ عال: نعمت صباحاً يا أخي كليب فقد قتلت في ثأرك نهار أمس خمسة آلاف نفس، أيكفي ما قتلت منهم أو أرجع وأفنيهم عن بكرة أبيهم؟ فأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف: وأنت أنعمت صباحاً يا أخي الحنون يا ساقي الضد كأس المنون، كف الحرب فقد اكتفيت وإن قاتلتهم بعد اليوم تكون قد تعديت وبغيت فتزيدني ضرراً وغماً وكدراً، فإن نفسي قد بلغت مناها ونالت مشتهاها فكثرت خيراتك وزادت الدنيا مسراتك.

(قال الراوي): فلما سمع الزير هذا الكلام زالت أتراحه وزاد فرحه وانشراحه، وقال: سبحان الرحمن الرحيم الذي يحيي العظام وهي رميم أنت يا أخي بخير ونحن بعدك نقاسي الضنك والضير. ثم نزل عن ظهر الحصان ودخل إلى القبر وهو فرحان وقال: إذا كنت بخير يا أبا اليمامة فما هي هذه السكنة والإقامة بعد العز والكرامة فقم إلى عند بناتك فإنهن في حزن وكدر. ثم تقدم إليه وتأمل فيه بالنظر فرآه أنه ذلك الرجل المعهود، فغاب المهلهل عن الوجود، فجذبه من لحيته وأخرجه من السرداب وقال له: أصدقني بالخطاب فمن أنت ومن تكون قبل أن تشرب كأس المنون. فأعلمه بواقعة الحال وحقيقة الأعمال فسل السيف ليقتله وقد أغاظه فعله، فقال: أنا بجيرة كليب أخيك فلا كان من يعاديك وقد غرني جهلي من قلة عقلي حتى جرى ما جرى يا فخر الورى.

فلما سمع الزير كلامه أبدى ابتسامه فصفح عنه وأعطاه جواداً من أطايب خيل العرب وألف دينار من الذهب، فدعا له بطول العمر وخرج من القبر وهو يقول: والله إن الأمير كليب يحمي اليوم الخائف في مماته كما كان يحميه في أيام حياته. ثم رجع إلى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة. وفي الغد ركب فرقة من الأبطال وقصدوا بنو مرة واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وما زالوا في قتال وصدام مدة عشرة أيام فانكسرت بنو مرة أشد انكسار وقتل الزير مقتلة عظيمة المقدار وكان يأتي برأس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مدة ساعة ثم يدفنها فوق الثرى ويبني فوقها القصور والقرى. وكان كلما أقبل من الحرب في المساء تلتقيه اليمامة مع جماعة من النساء فتقول: يا سيد الناس هل أتيت برأس خالنا جساس حتى نخلع السواد ويطيب الفؤاد؟ فيقول كوني براحة بال فسوف تبلغين الآمال بإذن الله المتعال.

هذا ما كان من أمر المهلهل، وأما جساس فإنه قد استقبل ولما ضاق به الحال اجتمع أهله وعشيرته وعقدوا بينهم ديواناً فاستقر رأيهم على أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة والسواد ويلجأوا بالملك الرعيني ابن أخت التبع حسان. فركب في ثاني الأيام إخوته وأكابر عشيرته وأخذ معه أخته الجليلة لتشفع لهم عند حريم الملك الرعيني، وبقي أخوه شاويش في الحي وكان هذا الرجل يحب الزير من أيام صباه فعند رحيل جساس حضر شاويش إلى عند الزير وأعلمه بما جرى وكان من سير إخوانه إلى عند ملك الحبشة والسودان فأعطاه الزير الأمان وقال له إني ما عدت أحاربكم من الآن حتى تحضر إخوتك إلى الأوطان بالأبطال

والفرسان وتوقف الزير من ذلك اليوم عن محاربة القوم وصار يصرف أوقاته بالصيد والقنص. هذا ما كان من أمر المهلهل، وأما جساس فإنه قد جرى في قطع القفار حتى وصل إلى بلاد الحبشة وتلك الديار ودخل على الملك الرعيني ووقع عليه بعدما أعلمه بحالتهم الحاضرة وطلب منه النجدة والمساعدة على حرب الزير وذكر له أيضاً بأن كليب قد قتل خاله تبع حسان وقتله هو وبقتله قام أخوه الزير يحاربهم حتى كاد أن يفنيهم. فلما سمع الرعيني هذا الكلام قال: لقد بلغت اليوم منكم المراد ولا بد من ذبحكم بحد الحسام لأنكم من قوم لئام قتلتم خالي وأتيتم تستجيرون بي ثم أمر بقبضهم، وكانت الجليلة واقفة على باب الصيوان وهي مثل الطاووس لابسة أفخر الملبوس كأنها العروس فلما شاهدت ما جرى على قومها خافت من العواقب فشقت المواكب وتمثلت أمام الرعيني فقبلت أياديه ودعت له بطول العمر، فلما رآها الرعيني تعجب من فرط حسنها فمال قلبه إليها ووقع في شرك هواها فقال لها: من تكونين يا مهجة الفؤاد وبغية المراد؟ فقالت له: أخت القوم الذين أمرت بقبضهم بدون ذنب. ثم أشارت تقول:

ما قالت الجليلة بنت مرة	أيا أبو فهد اصحي دير بالك
وانظر يا سياج البيض فينا	وانظر الذي وقف قبالك
أنا لقيتك يا ملك البوادي	يا من بالملا شاعت فعالك
ملوك الأرض كنا يا مسمى	فأنت نظيرنا ونحن مثالك
فالذي جرى كله مقدر	أيا فخر الورى من قتل خالك
قتل خالك كليب في حسامه	وقام أخي الذي واقف قبالك
قتل لكليب خالك بسيفه	كرامة خاطرك واصفى بالك

ظهر لكليب أخٌ اسمه المهلهل حرمنا النوم زاد الله مالك
قتل منا أماجيد كثيرة أتينا واقفين على ديارك
فهذا اليوم يومك يا مسمى فدق الطبل واركب في رجالك
وسر معنا إلى الزير المهلهل فاقتله ودوسه في نعالك
واحكم سائر العربان يا ملك على أموالهم تبقى حلالك
ولا تشمت العدا يا أمير فينا أتينا لك وصرنا من عيالك
وأنت صميدع شهم كريم جميع الخلق تفزع من خيالك

(قال الراوي): فلما فرغت الجليلة من نظامها وفهم فحوى قصدها ومرامها ثارت في رأسه الحمية وقال: قد فهمت قولك يا صبية ثم أشار يقول وعمر السامعين يطول:

قال الرعيني أبو فهد قال ألا يا جليلة اسمعي المقال
وأنتم افهموا قولي يا ملوك أولاد مرة ترون السهم زال
أتيتم تلتجوا فيّ الجميع وقعتم عليّ وقع العيال
من جور الزير يا أهل الكرم دهاكم ضناكم رماكم بحال
فوحياة رأسي ورحمة أبي من خلق الأرض وأرسى الجبال
لأركب عليه بكل الفحول وأجرد عساكر شبه الرمال
وأقتل عداكم بجاه السيوف وأنا أدع الزير في أسوأ حال
جليلة طيبي أنت وابشري أنا فدا أخوك بحد النصال
أيا أخي غطاس انهض الآن واجمع الفوارس والأبطال
نادي على الجيش أن يركبوا يلبسوا الزرد والنصول الصقال
ودقوا الطبول وشدوا الخيول ومشوا الفحول شبه العقال
فدعنا نسير نزيل عسير عن أولاد مرة هذا النكال

(قال الراوي): فلما فرغ الرعيني من كلامه نهض أخوه غطاس الوزير وجمعوا الأبطال والفرسان والعساكر السودان ونادى المنادي أن السفر يكون بعد ثلاثة أيام ولما تجهزت العساكر للمسير لحرب الزير كان عندهم ستمائة ألف بطل ففرح جساس ومن معه من الناس لما رأوا تلك السهول قد امتلأت بالخيول، وفي اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت العساكر كالبحور الزواخر في أوائلهم الملك الرعيني وأكابر دولته وجساس وباقي عشيرته، وما زالوا يقطعون البراري والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذا العسكر وأن يهيئوا له الأطعمة والذخر فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحاً عظيماً وهيأوا لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والمدام وخرجت النساء والرجال للقائهم، فلما وصلوا إلى الديار نزلوا في المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الآمال.

(قال الراوي): كل هذا يجري والزير ليس عنده خبر بشيء من هذه الأمور بل كان مواظباً على السرور وشرب الخمور، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه أخوه عدي وقال له: أنت جالس في صفاك ولا تدري بما دهاك من أعداك؟ وأشار ينشد ويقول:

لقد قال الفتى المدعو عديا	ودمع العين فوق الخد ساجم
أراك اليوم في زهوٍ ولهوِ	تنبه يا أخي إن كنت نائم
فقم وانظر على ما سوف يجري	من الأعداء يا ابن الأكارم
أتونا قوم مرة بالرعيني	ملك جبار بالأحكام ظالم
لقد ذهبوا إليه يا مهلهل	فجاء بست كرات عوالم
بهم من كل قوم ليث أروع	وهو من بينهم مثل الصقر حائم

تبدى الزير حالاً ثم قال له: تخاف من العدى وأخوك سالم

أنا وحدي ألاقيهم بعزمي أنا الدعاس في يوم الزحايم

وإني سوف أقتلك بالرعيني وأقطع رأسه والله عالم

وأفني جيشه مع جيش مرة أنا المقدام ما بين المعالم

(قال الراوي: فلما فرغ الوزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من هذا المقال وشكروه على تلك الفعال وأخذوا يستعدون للحرب والقتال، وأما الزير فإنه صبر إلى الليل فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من البشر وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون إلى الأمراء وأرباب المناصب والرتب طمعاً في الفضة والذهب. ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام من تحت الثياب وأخذ معه بعض الغلمان وسار إلى قبيلة بني مرة ولم يعلم به إنسان ولما اقترب من الحلة نزل عن ظهر الجواد وسلمه إلى الغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل إلى صيوان الرعيني فوجده جالس وحده فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه، فلما رآه الرعيني في ذلك المنظر خاف وانذعر وسأله عن مهنته فقال: إنني شاعر أطوف على الأمراء والأكابر فأحصل منهم على الأنعام ومزيد الإكرام وقد سمعت أنك في بني مرة فأتيت قاصدك من مدينة البصرة إلى أن تشرفت بطلعتك وتمثلت أمام حضرتك.

(قال الراوي): وكان للرعيني زوجة تدعى بدور وكانت خلف الستار فسمعت ما دار بينهما من الإيراد فأرسلت جاريتها تقول للملك أن يأمر الشاعر بالإنشاد فقال الرعيني: أنشد يا شاعر، فأنشد يقول:

قال الأديب الذي طالب إحسانك جرحي بوسط الحشا والقلب بزار

يا بو فهد يا رعيني استمع ما أقول يا من قلوب العدا بالروع هزار

قد كنت قبلاً في خير وفي نعم	مستور ما بين أهلي ما أنا معتاز
فصرت شاعر على الأجواد	أطوي الأراضي ماشي على عكاز
قالوا فسر للرعيني مقصد الشعر	فذاك جواد يعطي كل معتاز
فجئت طالباً إحسانك وإكرامك	يا من حويت المكارم بعطا المعتاز

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه أمر الملك الخزندار أن يعطيه ألف دينار فعند ذلك سلّ الزير سيفه الأبتر أسرع من لمح البصر وضرب الرعيني على عاتقه خرج من علائقه ثم مال على الطواشية والخدام بضرب الحسام، وبعد ذلك هجم على الخيام كسبع الآجام فقتل الرجال ومدّد الأبطال فوقع في السودان الضجيج والصياح والعويل والنواح فخرجت الأبطال من المضارب وركبوا ظهور الجنائب فتقلدوا بالسيوف وهجموا على بني مرة صفوف صفوف وهم لم يعلموا سبب ذلك الويل من شدة سواد الليل غير أنهم ظنوا أن بني مرة قد خدعوهم حتى أتوا معهم إلى بلادهم فقتلوا ملكهم وغدروهم، فلما رأى جساس ما حلّ بقومه من السودان استعظم ذلك الشأن فركب جواده وتبعته أجناده واضطر أن يدافع عن نفسه ويحامي عن أبناء نفسه فقاتل تلك الليلة حتى استقتل وفعلت رجاله مثلما فعل وكانت ليلة مهولة وحادثة غير مأمولة كثر فيها القتل والجراح إلى وقت الصباح وكان المهلهل لما بلغ القصد والأمر بذلك العمل أرسل عبده في الحال إلى الاطلاع في طلب الفرسان والأبطال فحضروا عند طلوع النهار وأحاطوا بالأعادي من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة أيام حتى أبلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار وأسد كرار، وكان من جملة المقتولين الأمير

غطاس قائد جيش السودان فلما رأت الجيش ما حل به من الهوان ولت الأدبار وأوسعت في جوانب القفار، وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا بالفلاة وهم يقصدون النجاة، ورجع الزير مع قومه التغلبيين غانمين ظافرين فدخل القصر بالعز والنصر وصحبته أكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون لا عدمنا طلعتك أيها البطل فبسيفك نلنا المراد وقهرنا الأعادي والحساد فلا زالت أيامك في سعود وعدوك مقهور ومكمود. ثم إنهم أكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا تلك الليلة في سرور وأفراح على ذلك الانتصار.

وأما الأمير جساس فإنه بات في قلق ووسواس وندم على ما فعل وقطع من سلامته الأمل ولا سيما لما بلغته الأخبار بأن ذلك الاختلاف والانكسار الذي جرى عليهم في الليل والنهار كان بحيلة المهلهل الأسد الكرار فزاد همه وعظم حزنه وغمه فكانت قبائل العرب يطلب منها المساعدة على قتال بني تغلب فانضمت عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعهم يداً واحدة وكذلك انضم مع الوزير جملة قبائل مشاهير حتى لم يبقَ في بلاد العرب قبيلة إلا وانضمت مع بني تغلب.

(قال الراوي): من غريب الاتفاق المستحق التسطير في الأوراق بأن الأمير مهلهل خرج ذات يوم في عشرة آلاف بطل ومعه الأمير كتيف وكان من أشراف تغلب وفرسانها الغطاريف وتبطن في جوانب القفر ليجس أحوال بني بكر فمر بقبيلة من بني تميم وهم من فرع تغلب وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة واجتمع المهلهل بفرسانها وسيدها الأمير عمر وقال لهم: اركبوا معنا يا بني تمام لقتال بني بكر

فأبوا وقالوا عن فرد لسان لا نحارب من لم يحاربنا من العربان، فقال المهلهل أما شملتكم الحرب لحد الآن فقالوا: لا يا فارس الميدان فقال فوحق الإله الخالق ما كنت أظن أنها شملت كل من في المغارب والمشارق وما دام الأمر كذلك يا وجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفاً من حلول العرب واقصدوا غير هذه الديار مرادنا أن نقاتلهم تحت ستور الاعتكار فإن حاربناهم لا تأمنون على أنفسكم من شرهم وأذاهم لأنكم فرع من قبيلة بني تغلب فينتقمون منكم لهذا السبب فقالوا ما علينا من بأس فإنهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه أشد من ضرب الحسام فتركهم وسار من الأثر بمن معه من العسكر وجد في قطع القفار فالتقى بقوم من بني بكر في ذلك الجوار فكبسهم تحت ظلام الليل وأبلاهم بالذل والويل فسلب أموالهم وقتل رجالهم وأخذ رؤوس سادتهم العظام ورجع في الظلام وطرح الرؤوس بين خيام القوم المعتزلين من بني تميم المذكورين كانوا راقدين ثم تركهم وارتحل وسار على عجل فلما استيقظت بنو تميم من المنام ورأت الرؤوس بين أطناب الخيام فأيقنوا أنها مكيدة من المهلهل فزاد بهم الخوف والوجل وعلموا أنه لا بد أن العدو يتهمهم بذلك العمل فنهضوا وارتحلوا من أطلالهم بمواشيهم وأموالهم وانضموا إلى قبيلة بني تغلب والتجأوا بالمهلهل فارس العجم والعرب فلم يبقَ قبيلة من قبائل العربان في ذلك الزمان إلا شملتها الحرب والهوان.

(قال الراوي): ولما عظم الأمر على جساس وضاقت به الأنفاس فصعد العابد نعمان الذي تقدم ذكره قبل الآن فوقع عليه وشكا حاله إليه

وبكى بين يديه وطلب منه أن يسير بالعجل ويقصد الأمير مهلهل ويطلب منه كف الحرب والطعان مدة من الزمان لحينما ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحرب التي أهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الأطفال، فلما سمع قوله رق له فسار إلى عند المهلهل في الحال وطلب منه أن يكف القتال ولو برهة قصيرة ومدة يسيرة وذلك لراحة القبيلتين وخير الفريقين فأجابه إلى ذلك المرام لأنه كان يحبه دون باقي الأنام وأمر بتوقيف الحرب عن القوم من ذلك اليوم، واشتغل المهلهل في تلك الأيام بالملاهي وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الأصوات والأنغام ومغازلة النساء في الصباح والمساء وكان جساس يترقب على المهلهل الفرص ليقتله ويزيل ما بقلبه من الغصص، فبلغه في بعض الأيام أن الزير طريح الفراش في الخيام من كثرة شرب المدام وأن أخوته قد خرجوا للصيد ولا يرجعون إلا بعد ثلاثة أيام فجمع إخوته وأعلمهم بذلك الخبر واتفق رأيهم أنه بعد غروب الشمس يركب أخوهم سلطان في جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزيرعلى حين غفلة. ولما كان الليل ركب سلطان في ثلاثة آلاف بطل وقصد حي المهلهل ولما صار هناك هجم عليه وهو راقد في الخيمة سكران فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه وأوثقوه كتافاً، ثم نزلوا عليه بالسيوف إلى أن أثخنوه بالجراح وأتلفوه حتى صار عبرة لمن اعتبر وكان دمه يسيل كالمطر فزادت أفراحهم وزالت أتراحهم وقالوا: لقد بلغنا الأرب ورفعنا الحرب عن العرب.

ثم إنهم وضعوه في جلد جاموس وأخذوه إلى عند أخته ضباع

وقالوا لها: لقد أتيناك بقاتل ولدك فخذيه واشفي منه غليل كبدك فياما قتل ويتم ورمل، فما هان عليها ذلك الأمر ولكنها أظهرت لهم السرور والفرح وقالت: إن جزاء الغدار الحرق بالنار ثم تركوها وساروا، وأما هي فقد احتارت في أمرها وزادت أحزانها عليها وإنه وإن قتل ولدها فإنه شيد للقبيلة ذكراً لا يبور على مدى الدهور.

فبينما هي في بحر الافتكار وإذا به قد فاق من غشوته وصحى من سكرته وقال وهو على آخر رمق سبحان الحي الدائم، ثم صاح يطلب عبده شهوان وهو يظن أنه في ذلك المكان فقالت له ضباع: قد انتقموا منك أعداك فاصحى فقد ذقت الموت والهلاك، فلما رأى ذاته عند أخته وهو على تلك الحال أنشد وقال:

قال الزير أبو ليلى المهلهل ونار الحزن توقد في حشاه
فكان كليب ملك البرايا أتى جساس غدره بالفلاه
جلست في مكانه أخذ لثاره وكنت أنعيه صباحاً مع مساه
فقال الشيخ كف الحرب عاجل ولا تقتل لسيف ولا قناه
جلست بخيمتي والدن جنبي وعندي العبد ما عندي سواه
وقومي كلهم للصيد راحوا فعرفوا القوم مع باقي العداه
أتوني والمقدر كان كائن وحلى كل مما أن تراه
أتوا بي لعندك يا أخت حتى تنالي الثار يا غاية ماه
كليني يا ضباع أو اقتليني أنا أخوك إذا احتبك القناه
فأنتِ تشبهي اللبوات حقاً وإني مشبه سبع الفلاه
فألقيني بصندوقٍ مزفت وارميني ببحر في مياه
أيا أسما افعلي أنت بأصلك ربيعة بيننا ما غباه

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الوجود وصار في صفة المفقود وكانت ضباع لما سمعت من أخيها هذا الكلام صار الضيا في عينيها ظلام، ثم إنها جاءت بصندوق كبير فوضعت فيه سالم الزير وزفته وطلته بالقار وكان عندها عبدان أمرتهما أن يحملا ذلك الصندوق ويلقياه في البحر فحملاه وسارت هي معهما تحت جنح الظلام إلى أن وصلا إلى شاطئ البحر فطرحاه هناك في البحر ثم بكت ضباع عندما غاب عنها أخيها ورجعت تنوح من فؤاد مجروح تقول: يا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك فقد أحرقت قلبي بفراقك يا جميل المحامل وفخر الأواخر ثم أنشدت تقول بهذه الأبيات:

تقول ضباع من قلب حزين	أيا عيني فزيدي في بكاها
كواني البين في أول زماني	رماني الدهر في أعظم بلاها
أيا دمعي فزيدي في سخاكي	على محزونة فقدت أخاها
لقد كان ملوك البرايا	ومن أعلا ملوك الأرض جاها
كليب جساس الذي قتله	طعنه طعنة برمحه في قفاها
ترك دمه على الأرض فاير	بحربة مسممة من السم سقاها
وقام الزير كي يأخذ بثأره	فقاتل آل مرة ثم هفاها
لقد قتله سلطان بغدر	اثني عشر ألف حملة قناها
فقال خذوه إلى أخته الحزينة	لتأخذ ثأر ولدها مع أخاها
فحطيته في صندوق مقفل	ومن بني مرة ما يعلم حداها
وقلت له روح يا جمل المحامل	أيا عود بيتي انحناها
وقلت قتلته يا فخر قومك	أيا حطاماً للجائع عشاها
أيا يوماً أخذه الموج عاجل	وموج البحر يلطم في مداها

فقلت له روح أيا سبع بغاب   بيوم الحرب ما تعطى قفاها
وهذا صار في عصر الجليلة   إله العرش يعدمها صباها
فسر يا ريح وأخبر اليمامة   لتصبح ثم تمسي في بكاها

ثم رجعت إلى الحي وصبرت حتى رجعت إخوتها وبني عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك القضية وما حل بالزير وقالت: والله إنكم بعد المهلهل تتعبون مع جساس، فتأسفوا جميعهم عليه وبكوا من فؤاد موجع ثم أن ضباع كتمت ما فعلت بأخيها وشاع الخبر أنها أحرقته بالنار وأخذت بالثار ولما شاع الخبر وانتشر بين الناس فرحت بنو مرة وجساس وأما إخوة الزير فإنهم شقوا ثيابهم من فرط أحزانهم وأخذوا يعددوه ويندبوه بالأشعار ويذكرون ما له من محاسن الآثار وكان أكثرهم حزناً أخوه عدي الذي يقول فيه:

أيا ويلي فدمع العين هلا   على الخدين من دمعي صبابة
على فقد الفتى مهلهل   أنور العين تدري ما أصابه
غدونا كلنا للصيد عنه   وهو جالس كأنه سبع غابه
وعند رجوعنا لم نلتقيه   فأحرق وسط مهجتنا غيابه
فمن يوم أخيه كليب ولى   فلا يسرح ولا يلقى صحابه
وما فارق محله طول عمره   ولا نعرف له مدة غيابه
مهلهل راح من أولاد مرة   وسهم البين ذر لنا غرابه
وبعده كيف عاد يصير فينا   لأن جساس ما تحمل عذابه
ترى بعده سيمحقنا جميعاً   يشتتنا ولا يخشى عتابه
أيا إخوتي ماذا نسوي   وأين نروح من هذه العصابه
تعالى أخي يا درعان قل لي   فقلبي والحشا يا أمير ذابه

أيا صراف يا ناصر تعالوا | أيا هزوز يا منية شبابه
ويا حنبل ويا باقي الأمارة | تعالوا واسمعوا مني الخطابه
نقول الزير ولى وراح منا | قتيل ويندفن تحت الترابه
والمهلهل ناصب الخيمة بعيد | في وسط بستان له يا حبيب
وحده يسكر بليله والنهار | رحت أنا إليه من بعد المغيب
في ثلاثة آلاف فارس غانمين | كل فارس مثل سبع وديب
هجمت عليه يا أخي بالعجل | ووقعنا عليه بضرب عجيب
ضربه جساس بالغ بالسيوف | حتى صار دمه جاري صبيب
ضربه حتى قطع منه النفس | وانطرح بلا مسعف ولا حبيب
ثم أخذه لأخته ضباع | لتأخذ بثأر ولدها الحبيب
أخذته حرقته بنار | وألقته على جمر نار اللهيب
هذا الذي فعلت بعدك يا همام | يا حما البيض في يوم النكيب

(قال الراوي): فلما انتهى سلطان من كلامه شكره جساس على اهتمامه وقال: بارك الله فيك يا همام فإن فعلك هذا يبقى مدى الأيام ثم ساروا إلى الحي وهم في أفراح وسرور وانشراح ولما وصلوا إلى الصيوان جلس جساس في الديوان واجتمعت حوله الأبطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة لها قدر وقيمة فاجتمع فيها خلق كثير من كل أمير وسيد خطير ورقصت النساء والبنات ودارت بينهم الأفراح والمسرات وانشرحت خواطر السادات وكان عندهم ذلك النهار من أعظم الأعياد الكبار.

(قال الراوي): وكان لما بلغ بنو قيس حقيقة الخبر أن المهلهل مات واندثر غابوا عن الوجود وأيقنوا بالموت الأحمر فزادت بليتهم وعظمت

مصيبتهم فمنهم من ارتحلوا من الديار وقصدوا الأمير جساس وطلبوا منه الأمان دون باقي الناس فأعطاهم الأمان وجعلهم من جملة الخدام والغلمان ولم يبقَ عند إخوة الزير والأشراف إلا شرذمة يسيرة وعصبة حقيرة فقصدهم جساس بالأبطال ودار بهم من اليمين والشمال فسلموا أمرهم إليه ووقعوا عليه فنهب أموالهم وأخذ نوقهم وجمالهم ثم أشرط عليهم أن لا يوقدوا ناراً في النهار والليل ولا يركبوا على ظهور الخيل بل يصيروا مكانهم في الخيام فأجابوه إلى ذلك المرام خوفاً من الاندثار ونزول الدمار وبعد هذا رجع إلى الديار بالفرح والاستبشار فعظم شأنه وتأيد بالعز مكانه وسار في مقام عظيم وحكم على السبعة أقاليم. (قال الراوي): أما إخوة المهلهل فإنهم بعد هذا العمل رحلوا من أطلالهم بأولادهم وأطفالهم ونزلوا في وادي السعاب وهم ببكي وانتحاب وذل وعذاب وصبروا على حكم رب الأرباب. هذا ما جرى لهؤلاء من العبر وأما الزير الأسد الغضنفر فإنه لما ألقته أخته في البحر كما سبق الخبر فقذفته الأمواج في البحر العجاج إلى أن ساقته التقادير الإلهية إلى مدينة بيروت وكان اسمها الخيبرية وملكها يدعى حكمون ابن عزرا وكان من أجلّ الملوك قدراً واتفق بالأمر المقدر أن ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون سمك نظروا ذلك الصندوق في البحر العجاج تلعب فيه الأرياح وتقذفه طوارق الأمواج فقال أحدهم للآخر انظر يا صمويل هذا صندوق يا رؤوبل قد ساقه إلينا إله إسرائيل ثم إنهم قصدوه في الحال وسحبوه إلى الشاطئ بالحبال وذلك بعد تعب ونكد ما عليه من مزيد فقال رئيس الشختور لباقي الأعوان تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل أن نفتحه يا إخوان فنأخذ كل واحد منا حقه قدر ما يستحقه فأجابه بعض

الرجال ما هو مرادك بهذا المقال فقال: إن لي النصف ولكم الآخر لأني صاحب الشختور والرئيس الأكبر فقالوا: وحق خمار العذير ما تنال منه شيء يا شبير ثم وقع بينهم الخصام وتشاتموا بالكلام فضرب أحدهم الرئيس بسكين فقتله وكان للرئيس أخ فضربه القاتل بالمقذاف فجندله وما زالوا يتقاتلون طمعاً بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى رجل واحد واتفق بالأمر المقدر أن حكمون كان قد خرج في تلك الساعة مع أكابر دولته للصيد والقنص فمر من ذلك المكان فوجد الصندوق والرجل والقتلى مطروحة على الأرض فوقف وسأل الصياد عن السبب فأخبره بواقعة الحال فتأمل الملك في الصندوق فتعجب من كبره وثقله وأراد أن يعرف ما فيه فأمر بحمله إلى السرايا وارتد راجعاً مع باقي رجاله، فلما صار هناك أمر بفتحه ففتحوه وإذا رجل طويل القامة عريض الهامة واسع المنكبين كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح وقال الملك لحواشيه ما وجدتم فيه؟ قالوا يا ملك الزمان فيه إنسان كأنه من عفاريت السيد سليمان له عيون كعيون السباع فلما نظر الملك خاف وارتاع وقال للأتباع كم له من الزمان يا ترى في هذا المكان؟ (قال الراوي): وكان لهذا الملك حكمون طبيب ماهر اسمه شمعون فتقدم إلى الزير وهو مطروح وجس زلقومه وعرق الروح فوجده يختلج في أعضائه فقال للملك إن الرجل في قيد الحياة فقال له: هل تقدر أن تشفيه وأنا أعطيك ما تشتهي؟ قال: نعم يا مولاي ثم نهض على الأقدام وقال: بسم الله العظيم فشمر عن زنوده وأخذ إسفنجة وبلّها بالماء الخارج ومسح الجروح ووضع المرهم على القروح ثم جاء بعسل النحل فغلاه وفتح فمه وأسقاه وفي برهة قصيرة اختلجت

أعضاؤه وتحركت وفتح عيناه فنظر وتأمل في ذلك المحفل فرأى جماعة من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فاعتراه الانذهال وشكر الإله المتعال فقال له حكمون من أنت ومن تكون؟ ما هو اسمك؟

فقال: اسمي الموحد أنا عبد الإله العظيم رب موسى وإبراهيم.

فقال: ما هي قصتك وسبب وضعك في هذا الصندوق؟

فقال: كنا أربعة سياس عند الملوك وكنت أنا المقدم على الجميع فحسدوني وضربوني ذات يوم بقصد أنهم يقتلوني فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أرَ نفسي إلا في هذا المكان.

فقال الملك للحكيم: خذه إلى عندك وداويه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك أحضره لي عندي. فأخذه الحكيم إلى داره وعالجه مدة من الزمان حتى ختمت جراحه وتحسنت أحواله فأتى به إلى عند الملك ولما دخل سلم عليه وتمثل بين يديه فقال له الملك: كيف أنت الآن يا موحد؟ فقال له: بحسب أنظارك الشريفة قد شفيت وحصلت على دوام العافية فلله در هذا الحكيم فإنه يستحق الإنعام والإكرام فمهما أنعمت عليه فإني سأعطيك إياه. فتبسم الملك من هذا الكلام وأنعم على الحكيم ثم التفت إلى المهلهل وقال: أعلمني بحالك وكيفية أحوالك، وأشار الملك يقول:

قال أبو ستير حكمون الملك	يا موحد استمع مني المقال
هات احكيلي على ما صار فيك	ما عملت وما فعلت من الفعال
حتى طعنت يا موحد بالرماح	جروحك كثيرة بسيوف صقال

يـا مـوحـد أنـت الـيـوم مـلـيـح — قـرم فـارس خـيـل مـا أنـت نـدل
قل لي عن ذي الجرح كيف صار — وما سببهم قول يا سبع الرجال
ثـم أعـلـمـنـي عـلـى مـا قـد أقـول — يـا زكـي الأصـل عـن عـمٍ وخـال
فـي بـلادك أتـوك الـغـانـمـيـن — يضربون الشور لك معهم مقال
بـعـد هـذا قـل لـنـا عـن صـنـعـتـك — الـذي تـأكـل مـنـهـا خـبـزك حـلال

فلما فرغ حكمون من مقاله قال له الزير: اعلم أيها الملك الجليل صاحب الفضل الجميل إن سألت عن حسبي ونسبي ووظيفة أبي فإنه كان ملك من ملوك العربان ثم غدر به الزمان حتى صار يسوس الخيل وأنا تبعت مهمته وهذه وظيفتي ومهنتي وأشار يقول:

قال أبو ليلى المهلهل في قصيد — يا ملك حكمون يا حكم الخصال
في بلادي إن سألت عن الجلوس — مجلسي في الوسط فوق أعلى الجبال
وإن سألت عن الشور كل الشور لي — مـا أحـد يـقـدر يـخـالـف لـي مـقـال
وإن وقـع الـحـرب وضـرب الـسـيـوف — فـالـعـذارى هـلـلـت فـوق الـجـمـال
والـسـيـوف الـجـدب عـاد لـهـا مـريـر — والـقـتـول تـلـول عـادت كـالـرمـال
فـداك الـيـوم أيـا أعـز الـمـلاح — ما مثالي في اليمين وفي الشمال
وإن أتاني ضيف أنا أعز الضيوف — وأشبع للضيف من لحم الجمال
والفتى المعروف منجد يا أمير — ابـن وائـل ذاك يـا أمـيـر خـال
إن كنت تسأل يا ملك عن صنعتي — صنعتي حاصود في رؤوس الرجال
أمـا أبـي فـكـان ذو قـدر عـظـيـم — مـال فـيـه الـدهـر يـا حـكـمـون مـال
صـار سـايـس بـعـد عـزه لـلـخـيـول — بـالـكـرامـة بـعـد عـزه والـدلال
وأنـا قـد صـرت سـايـس بـعـده — أسـوس الـخـيـل مـا مـثـلـي مـثـال
وجروحاتي هي من عض الحصان — قـد ضـربـنـي بـرجـلـه أربـع نـعـال

قمت من كدري ضربته في حشاه راحت السكين تلعب للعزال
لأجل ذاك المهر سوى هل فعال وارموني بالدل مع كثر الخيال

فلما سمع حكمون هذا الكلام من الزير غضب عليه وقال له: أنت كذاب فقد أخبرتني قبل الآن رفاقك قتلوك واليوم تقول الحصان ضربني فتكذب علي وتحتقرني فلو كنت من الأكارم ما جرت عليه هذه العظائم ثم صمم على قتله فتشفعت فيه أكابر دولته ووضعوه في الحبس وبقي هناك مدة سنة كاملة وكان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم فضجوا منه الناس وشكوا أمرهم إلى الملك وقالوا له: إذا كان هذا سائس كما يقول فاجعله يسوس الخيل لأنه يقاسمنا على طعامنا غصباً وقهراً وهذا الأمر لا يطاق فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جبينه فاستدعاه الملك إليه وقال له: هل أنت ماهر يا موحد بسياسة الخيل؟ قال: نعم فقال: سلموه خيلنا فإذا وجدنا له معرفة في ذلك أكرمناه. (قال الراوي): وكان كثيراً ما ينفرد بنفسه ويتذكر أهله وعشيرته وما هو فيه من الإهانة والأسر ويبكي ويقول: يا ليت شعري ما جرى على أهلي من بعدي لأن الأسير كما لا يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير وعالم نحرير فكيف من تكون جناب الأمير سالم الزير الذي قهر الأبطال والمغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير فإنه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام وقع في أسر بني إسرائيل فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل ولكنه سلم أمره إلى الله وقام ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الإفناص وكان قد انتخب له فرساً من أطايب الأفراس كانت طويلة العنق قصيرة الرأس

وأجود من القميرة فرس جساس فاعتنى بتربيتها حتى حالت فأخذها إلى شاطئ البحر وربطها هناك فخرج عليها حصان من البحر فشب عليها فراحت حامل وبعد عام ولدت مهر أدهم وكان كامل الأوصاف ململم فسماه الأخرج لخروج أباه من البحر ثم فعل معها ذلك العمل في الثاني فولدت له مهر آخر كأنه الأبجر حصان عنتر فسماه أبو حجلان واعتنى بهما دون باقي الخيل وكان يسوسهما في النهار والليل واستمر على تلك الحال مدة أربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين.

حرب برجيس الصليبي مع اليهودي

(قال الراوي): واتفق في تلك الأيام أن برجيس الصليبي أحد ملوك الأروام خارج مع أخيه سمعان في مائتي ألف عنان من بلاد كسروان وتلك الحدود لمحاربة حكمون اليهودي، وذكر رواة الأخبار وعظماء الأعصار بأن مدينة حكمون كانت نفس مدينة بيروت كانت مزخرفة البنيان وكثيرة الحوانيت والبيوت ولما اقترب إليها برجيس بالعساكر النصرانية نصب خيامه في الأشرفية وكتب كتاباً إلى حكمون يقول فيه: من برجيس بن ميخائيل إلى حكمون ملك بني إسرائيل أما بعد، فإنك قد خالفت الشروط ولم ترسل لنا الخروج المربوط وقد مضى خمسة أعوام وأنت تجاولنا بالكلام فاقتضى أننا قصدناك الآن بالأبطال والفرسان كأنها مردة الجان لا تخاف طعن الرماح ولا نكل الحرب والكفاح فإن دفعت الخراج المطلوب من عشر مالك توقفنا عن حربك وقتالك وإلا وحق من أوجد الإنسان والمسيح الذي ولد بلا دنس خربنا ديارك وطفينا نارك وقلعنا آثارك وجعلنا الولايات اليهودية تابعة للأقاليم المسيحية فأسرع في رد الجواب قبل حلول العذاب ثم إنه ختم الكلام بهذا الشعر والنظام:

على ما قال برجيس الصليبي   كـريـم الـوالـديـن أبـاً وجـدا

شديد البأس ما بين الترابا   على السادات دوماً مستجدا
أذل القوم في سيفي ورمحي   أقد الشوش والهامات قدا
أنا قاصد لحكمون اليهودي   فأعلمه بما قد إستجدا
وأخبره بفرساني وجيشي   وما عولت أن أفعله جدا
بهم من كل قرمٍ ليث أروع   يصعد الخليل في الميدان صدا
يري المال أرسله سريعاً   وإن لم يمتثل أمري فبدا
وعشر الخيل مع عشر العذارى   بنات قد زهوا وجهاً وقدا

(قال الراوي): إن الملك برجيس سلم الكتاب إلى قائد اسمه فرنسيس وأمره أن يسير لعند حكمون فيعطيه الكتاب ويأتيه بسرعة الجواب فامتثل القائد أمر مولاه وجد في قطع الفلاة إلى أن دخل البلد وقصد حكمون دون أحد فلما وصل إليه سلم وأعطاه الكتاب وتمثل بين يديه وكان عند حكمون جماعة من أخيار اليهود وهم يطالعون في التوراة والتلمود ولما فض الكتاب وقرأه وعرف حقيقة معناه احمرت عيناه وصاح على الرسول صوت مثل الغول وقال: هكذا يكتب لي برجيس يا خبيث يا تعيس؟ فلولا العار يا بن الأشرار لكنت قطعت رأسك وأخمدت أنفاسك فاذهب وقل لمولاك أن يستعد للحرب والعراك فإني لا أهابه ولا أحسب حسابه. فخرج فرنسيس من بين يديه وهو ينفض غبار الموت عن عينيه ثم صاح الملك حكمون على أخيه صهيون ووزيره قسمون وقال لهما: استعدوا للقتال وفرقا السلاح على العساكر والأبطال فقد أتتنا العساكر المسيحية والأبطال النصرانية وقد عسكروا في الأشرفية فأجاباه إلى ما أمر وفي الحال جهز العساكر وفرقا عليها السلاح

والسيوف والرماح. ولما بلغ الملك برجيس كلام حكمون صار مثل المجنون وعول ثاني يوم على الحرب والصدام.

(قال الراوي): وعند إشراق الصباح استعد حكمون للحرب والكفاح فخرج من البلاد بالعساكر والعدد وحوله الكهنة والأحبار وهم يتلون التوراة والأسفار أملاً بالفوز والانتصار وكان الملك برجيس قد ركب في ذلك النهار بذلك الجيش الجرار وتقدم طالباً القلاع والأسوار بقوة واقتدار وعلى رأسه البيارق والصلبان ومن حوله القسوس والرهبان وهم يتلون الزبور والإنجيل بالتنغيم والتهليل ولما التقى العسكران تقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتقت الفرسان النصرانية بالأبطال الإسرائيلية في تلك البرهة وهجموا على بعضهم هجمات قوية وتضاربوا بالسيوف المشرقية وكانت الأمة العيسوية قد فتكت بالعصبة العبرانية وأذاقتها في ذلك اليوم من الأهوال أعظم بلية وقتلت مقتلة عظيمة وفيه رجع حكمون وهو يتأسف ويتلهف على ما بعسكره من الويل والتلف ودخل إلى البلد مع الجيش وأغلق الأبواب وقصد القصر وهو خارج عن دائرة الصواب ونزل برجيس خارج المدينة وكان قد امتلك ذلك النهار ثلاثة قلاع حصينة.

(قال الراوي): وكان المهلهل قد سمع صياح القوم فسأل عن الخبر فأعلموه بواقعة الحال فتاقت نفسه إلى القتال ومصادمة الأبطال فأخذ قصبة بيده وصعد إلى السور ليشاهد تلك الأمور وكان ذلك المكان بقرب قصر حكمون فنظر القوم وهم يتقاتلون فكان كلما نظر النصارى غلبوا أو ظفروا يقول لليهود تقدموا ولا تنكسروا وكان يهدر كالرعد

القاصف أو كالريح العاصف وهو راكب على الحيط كما يركب الحصان ويضربه برجليه ويصيح على الفرسان. واستمر على تلك الحال إلى أن رجع حكمون إلى البلد وهو في غم ونكد، وكان لحكمون بنت كالقمر اسمها أستير نظرت من الشباك أفعال الزير فتعجبت من أفعاله وغرائب أعماله.

فلما رجع أبوها سألته عن حاله وما جرى له في قتاله فأعلمها بواقعة الحال وانتصار النصارى في القتال. فبعد ذلك أخبرته ابنته أستير بما رأته في ذلك اليوم من أعمال الزير وقالت: إذا كانت أعماله صحيحة فإنه يكسر هذا العسكر ويذيقه الموت الأسمر ثم أشارت تقول:

تقول أستير اسمع من كلامي ... نظر اليوم في عيني العجائب
نظرت اليوم من هذا الموحد ... فعال قد تعيد الرأس شايب
فلما دقت الطبل النصارى ... وقد هجمت عسكرها تحارب
والتقت العساكر بالعساكر ... وراح السيف يعمل في المناكب
فقد أبصرت أحوال الموحد ... غرائب قد فعلها من عجائب
ركب للحيط سواه حصانه ... كأنه يا أبي قاصد يحارب
ويزعق ثم يلكز في كعابه ... إلى أن قد جرى دمه سكايب
وتهدر مثل ليث أروع ... ترج الأرض منه والتكائب
يريد الحيط يطلع فيه يغزي ... وقلبه للقا والحرب طالب
إذا ولت رجالك قال باطل ... وإن ولت عداك قال طالب
ينخي الناس واحد بعد واحد ... قل روحه وهو لحيطٍ راكب
فهذا قد نظرته اليوم حقاً ... من الأول إلى وقت المغارب
فلا أدري أهو عاقل صميدع ... ولا أدري أهو مجنون خائب

(قال الراوي): فلما فرغت أستير من شعرها ونظامها وفهم أبوها

فحوى كلامها أراد أن يستدعيه إليه فقالت له: من الصواب أن يركب أخوك نهار غد ويقاتل العدوان وتبقى في القصر فلعله يفعل كما فعل بالأمس فتشاهد أعماله وتختبر أحواله فليس الخبر كمشاهدة النظر. فاستصوب كلامها وبات تلك الليلة في قلق وضجر ولما أصبح الصباح أمر أخاه أن يركب بالعسكر ويخرج لقتال النصارى فركب أخوه في عسكر اليهود وانتشرت على رأسه الرايات والبنود فالتقته جموع النصارى مثل الأسود وصياح الأبطال وهمهمة الرجال واشتد بينهم القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال فلما سمع الزير التهب قلبه بنار الاشتعال فصعد على السور وهو حزين النفس وفعل كما فعل بالأمس وكان كثيراً يقول يا لثارات كليب من جساس المخذول وهو ينخي القوم ويقول: اليوم ولا كل يوم. وكان حكمون ينظر إليه مع ابنته فتعجب من فعله وهول صورته فأمرها أن تناديه ليحضر أمام دولته. فنادته فالتفت إليها ولباها وقد تعجب من حسن رؤياها قالت: أبي يدعوك أن تحضر إليه. فنزل وصعد إلى القصر ودخل على الملك وسلم عليه وقبل الأرض بين يديه، فقال له حكمون: إن كنت قادرٌ على ما تقول وأنت من الفرسان والفحول فانزل وقاتل هنا في هذا النهار المهول فإن لنا عليك جميل وأفضال وإن كسرت الأعداء بلغناك الآمال وأغنيناك بالمال وأطلقناك من الأسر والاعتقال.

فأمر الملك بأن يعطوه جواداً من أطايب الخيل ودرعاً وسيفاً فأتوا له بجواد فقال لهم: هذا لا يحملني ثم اتكى عليه بيده فكسر أضلاعه فأتوا له بآخر ففعل به كذلك وما زال على تلك الحال حتى قتل عشرة خيول

فتعجب الملك من قوة بأسه وشدة مراسه ثم أتوا له بعدة حرب وجلاد ففعل كذلك إلى أن أتوه بعدة حرب الملك حكمون فلبسها وكانت من أحسن العدد واعتقل بالسيف المهند وركب على ظهر حصانه الأخرج الذي كان ينتظر منه الفرج وأخذ في يمينه الرمح الأسمر والتفت على حكمون وقال: اليوم تنظر فعالي وتعاين حربي وقتالي وتذكرني على طول الدوام أيها الملك الهمام. ثم إنه لكز الحصان وقوم السنان وانطلق إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان وقد هان عليه الموت تحت أرجل الخيل عند بلوغ القصد والمأمول وكانت النصارى قد كسرت اليهود وفتكت بهم فتك الأسود فما رأى المهلهل تلك الحالة استعد للحرب والقتال وتقدم صهيون أخو الملك حكمون وقال: شدوا عزمكم وقاتلوا خصمكم ثم خاض المجال وطلب الميسرة في الحال وقاتل الأبطال فمدد أكثرها على الرمال وتأخرت عنه الرجال ورأت النصارى تلك الفعال واعتراها الانذهال وهجموا عليه من اليمين والشمال فأبلاهم بالذل والويل وقتل جماعة من الفرسان الخيل وكان كلما كثرت عليه الكتائب وضاقته العساكر والمواكب يتذكر أخوه كليب الأسد الغالب فيهاجم هجوم السباع ولا يخاف ولا يرتاع فعند ذلك تأخرت عنه الفرسان وتوقفت عن قتاله الفرسان. وكان برجيس من فرسان المعارك فلما بلغه ذلك نما غيظه وزاد وهجم بالعساكر والأجناد طالباً ساحة الميدان من حوله القسوس والرهبان وعلى رأسه الرايات والألوية فلما اقترب من تلك الناحية وقعت عينه على صهيون أخو الملك حكمون فتقدم إليه وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً فعندذلك ضجت طوائف

اليهود لما رأوا أميرهم مفقود فاستغاثوا بالتوراة والتلمود فالتقاهم برجيس كالنمرود وقتل منهم كل فارس معدود وكان المهلهل يقاتل من بعيد الفرسان الصناديد ويمددها على وجه الصعيد فلما رأى طوائف اليهود متأخرة بعد أن كانت ظافرة وهم يصيحون ويندبون على فقد صهيون فلما عرف باطن الطوية أخذته الغيرة والحمية فقصد الملك برجيس إلى ذلك المكان وفي الطريق التقى بأخيه سمعان وهو ينخي الأبطال والفرسان فهجم عليه هجمة الأسد وضربه بالسيف المهند فألقاه على وجه الأرض يتخبط بعضه ببعض فلما قتل الأمير سمعان حمل جيش النصارى على الزير من كل مكان عند ذلك دقت النواقيس وحمل أيضاً برجيس وتبعه كل أسقف وقسيس.

ولما رأت اليهود أفعال المهلهل أيقنت ببلوغ الأمل فارتدت إلى قدام بعد ذلك الانهزام التقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقوا عن بعضهم البعض وزالت كل قبيلة في ناحية من الأرض.

(قال الراوي): وكان الملك برجيس قد صعب عليه قتل أخيه سمعان وندم على مجيئه إلى تلك الأوطان وكذلك استعظم حكمون قتل أخيه صهيون فكانت مصيبة عظيمة على الملكين وداهية على الفريقين ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت العساكر واصطفت وانقسمت إلى ميامن ومياسر فتقاتلوا بالرماح والخناجر والسيوف البواتر فكان الزير كالأسد الكاسر وجرى للأبطال في ذلك اليوم من الأهوال ما

يشيب رؤوس الأطفال واستمروا على تلك الحال وهم في أشد قتال وخصام عشرة أيام على التمام وكان الزير قد فتك فتكاً عظيماً وقتل من النصارى عدداً جسيماً فلما رأى الملك برجيس ذلك خاف من الوقوع في المهالك لأنه كان من الملوك الكبار أصحاب السطوة والاقتدار أمره نافذ في جميع الأقطار فخار من الانكسار والوقوع بيد المهلهل الجبار فجمع أركان دولته ووزراء مملكته وعقدوا بينهم ديواناً فاستقر رأيهم على المصالحة وتوقيف الحرب بعد المصادمة والمصالحة وأن يرحلوا بأمان من الأوطان ويبقوا مع حكمون كالأصحاب والإخوان على طول الزمان ثم إن الملك برجيس أرسل إلى حكمون بعض وزرائه المعتبرين يعلمه بذلك ويأتيه بالخبر اليقين فسار الولد إلى عند الملك حكمون وأعلمه بواقعة الحال ففرح حكمون وباقي الأمة العبرانية لأنهم كانوا يخافون من سطوة الملوك النصرانية فأجابه إلى المطلوب وحمد الله الذي أناله من غوائل الحروب وهكذا تم الاتفاق ووقع الصلح والوفاق ورجع برجيس من تلك الآفاق بمن معه من الرفاق بعد أن رتب على الملك حكمون مالاً معلوماً يدفعه كل سنة إلى خزينة الملك.

(قال الراوي): وعظمت منزلة الزير عند حكمون وقال: مثلك تكون الفرسان فأنت اليوم عندي كالولد وأعز من الروح في الجسد فلولاك كنت في حال تعيس واستولى علي الملك برجيس وكانت الأميرة أستير قد شاهدت أفعال الزير فأثنت عليه وقد مال قلبها إليه ثم قالت: لا عدمناك أيها النحرير فإنك تستحق الإكرام والخلع. وكان الملك قد مال إليه كل الميل فقدمه عن جميع فرسان الخيل ورفع منزلته على الكبير

والصغير ولقبه بالأمير وأنعم عليه بنيشان من الماس ليمتاز به على كبار الناس وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه على سفرة الطعام ولما فرغوا من الأكل وشرب المدام قال له الملك: تمنى علي أيها الأمير والسيد الخطير فمهما طلبت أعطيتك إياه بدون تأخير فطلب منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الأخرج، وأعلم حكمون بنفسه، وطلب منه أن يجهز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا ومن هناك يسير وحده إلى مرج بني عامر محل إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته، فلما سمع حكمون بواقعة حاله وأنه هو المهلهل زاد مقامه عنده وقال له: هذه بلادي أمالك وأموالي بين يديك فأقم عندنا طول عمرك وإننا والله لا ننسى جميلك ومعروفك. قال الزير: لا بد لي من الذهاب لأنني لحد الآن ما أخذت بثاري ولا طفيت من العدا لهيب ناري. عند ذلك أهداه الحصان الأخرج وأعطاه السيف والرمح وعدة الحرب وجهز له مركباً من أحسن المراكب وأمر القبطان بمداراته وامتثال أوامره وإنه بعد أن يرجع إلى حيفا يرجع حالاً، ثم سار معه حكمون إلى المراكب مع أكابر دولته وقال له عند الوداع: الله يبلغك أمالك فلا تقطع عنا أخبارك فسلم عليه المهلهل ودعا له بطول العمر ثم رجع حكمون إلى المدينة وسافر المركب بالتهليل. وفي اليوم الرابع أشرفت السفينة إلى ميناء حيفا وألقت مرساها ونزل المهلهل إلى البلد وبقي الحصان في المركب وأمر القبطان أن يحتفظ عليه لوقت الطلب ومن هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى بطراف ابن ناصر وهو حافي عريان وقد كان من الأعيان ومن أصحاب الزير فأقبل إليه وسلم عليه فرد عليه الزير السلام ثم عرفه بنفسه وأخبره بما جرى عليه من الأول إلى الآخر فقال:

أهلاً وسهلاً بقدومك علينا فوالله كنا قد قطعنا الأمل من سلامتك فالحمد لله على اجتماعنا، فقم بنا إلى ربعنا حتى تنظر أهلك لأنهم دائماً في ذكرك. فقال الزير: إني لا أذهب إلى هناك حتى أذهب إلى حي بني مرة وأنظر باقي قومنا الذين التجأوا إلى جساس فسر معي إلى هناك فسار ناصر معه وهو فرحان وجدا في مسيرهما حتى وصلا إلى أحياء بني مرة فالتقيا بالأمير سالم المهيا قاصداً الصيد مع جماعته ولما اقترب سالم من المهلهل ونظره حن قلبه إليه فحياه بالسلام وجعل يأمل فيه ويقول: والله من يوم غاب حامينا فقد عزنا وما أبصرنا قامته إلا هذا اليوم. ثم دمعت عيونه فقال الزير: كيف تبكي عليه وأنت ملتجئ إلى أعدائه؟ فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر الجواد ووقع عليه واعتنقه المهلهل وطيب خاطر جماعته وقال لهم: ابقوا على ما كنتم عليه وعندما تستمعون صرير السيوف في أعناق بني مرة فحينئذٍ تفعلون ما يجب عليكم فعله. فساروا في سرور وأفراح حتى يعلم بعضهم بعضاً. وأما الزير فإنه سار هو وطراف وهما متنكران حتى دخلا إلى حي جساس وقت المساء فوجد الحي في دق طبول ونقر دفوف وأمور تدل على مسرّات وأفراح فقال المهلهل في سرّه ما عسى أن يكون هذا؟ ولما اقترب من صيوان جساس وجده ممتلياً من الناس وجساس جالس في الصدر وحوله الأكابر والأعيان والمولدات تدق بالدفوف والمزامر وبعد قليل حضرت العبيد بسفر الطعام فقام جساس إلى المائدة وتقدمت بعده الأمراء وجعلت تتوارد الفرسان وتتزاحم على بعضها البعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس وجلس بقرب جساس وأخذ يتناول من أنواع الأطعمة فلما رآه جساس أنكر أمره وقد استعظم كبر جثته وهو يأكل أكل الجمال فقال

له جساس: ادعو لي يا شيخ. فقال: إنني دائماً أدعو لك ولست بناسيك على طول الزمان. فازداد جساس خوفاً وارتجفت أعضاؤه ولما انتهى من العشاء أمر جساس بإحضار الرمل وضربه في الحال ورسم الأشكال فظهر له انكيس واحمرار وأنه قادم عليه أوقات منحوسة وسيظهر رجل لقي الجد عن قريب يذيقه الأهوال وقد تأكد عنده بأن ذلك هو نفس الزير لأنه لا يوجد له عدو غيره. فالتهب قلبه بناره وصاح من ملو رأسه يا ستار، فجاءت إليه إخوته وقالوا: ما أصابك يا أمير؟ فأنشد يقول:

يقول جساس بن مرة في بيوت	اسمعوا يا إخواني أهل الوفا
ضاق صدري وامتلا قلبي هموم	فالقلق والغم ضارب بالحشا
جمعت تخت الرمل حورته بسرعة	حتى أرى ما هو هذا البلا
رأيت لقى الجد آتٍ عن قريب	صاحب البطش ما بين الملا
ورأيت الجود له بيت ضد	والجماعة شكلهم واقع حدا
ما عاد لي عقل لهذا الرمل قطرة	حرت فيه اليوم يا أهل النها
لو يصح القول قلت الزير جا	ها هو جالس بين الأمرا

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وفهم الزير مطلوبه وعرف المقصود وضع يده على قبضة سيفه حتى إذا قال جساس اقبضوا عليه ليفتك به ويعدمه الحياة ومن كثرة ما جرى على جساس من الغم والوسواس ترك من كان عنده من الناس ودخل على الحريم خوفاً من أمر يأتي. فلما رآه الزير فعل ذلك قال: لا بد من قتله إن لم يكن اليوم يكون غداً. ثم خرج من الصيوان مع الأمير طراف وسارا قاصدين الأوطان حتى وصلا إلى الشعاب ودخل إلى الخيمة التي فيها بنات

كليب فسمعت ابنة كليب الكبيرة صوته فقالت له: من أنت وما هو اسمك؟ فلما سمع صوتها عرفها فتقدم إليها فوجدها وشقايقها بثياب الحداد، تقطع قلبه وهطلت عيناه بالدمع وقال: أتقبلوا الضيف يا بنات الأماجيد؟ قالت: مرحباً فأنا أول من ضاف ولكن قد جار علينا الزمان فأولنا بعد العز والجاه وصرنا في حالة يرثى لها، فاقصد يا شيخ محل الوليمة هو المكان الذي تدق فيه الطبول فتحصل على بلوغ المأمول. فقال: بالله عليكِ يا صبيحة أن تحكي واقعة حالكم فقد جرحت قلبي بهذا الكلام. فقالت اليمامة: لقد ذكرتنا بمصائبنا وعلى ما جرى. فجلس الزير هو وطراف وجلست هي بجانبه ثم عرّفها هي وشقايقها بنفسه وإنه هو عمها صاحت بصوتٍ عالٍ من ملو رأسها: هذا في الحلم أم في اليقظة؟ ثم وقعت عليه وشقايقها يقبلونه ويقلن: الحمد لله الذي أرانا وجهك بخير وعافية فوالله قد زالت أتراحنا وتجددت أفراحنا وسمع أبو شهوان عبد العزيز هذا الخبر فدخل عليه ووقع على قدميه لأنهم كانوا يظنون بأنه مات. فكانت تلك الليلة عندهم من أعظم ليالي الأفراح والمسرات وبعد ذلك جلسوا يتحدثون فقالت اليمامة: بالله يا عماه أن تعلمنا بقصتك وما جرى في سفرتك. فقص عليهم ذلك الخبر وما سمع وأبصر وختم كلامه بهذا القصيد:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل	عيوني دمعها جاري بكاها
بكت دماً على ما صار فينا	ليال السعد ما عدنا نراها
عدمنا فارس الهيجا كليب	عقاب الحرب إن دارت رحاها
دهتني آل مرة جنح ليل	لتقتلني وتشفي ما دهاها
فكنت بخيمتي ملقى طريحاً	ثلاث آلاف ذرتني قناها

وسحبوني لعند ضباع أختي وألقوني طريحاً في حداها
وقالوا يا ضباع خذي أخوكِ أخذنا روحه قوي عزاها
فألقتني بصندوق مزفت وأرمتني بوسط البحر ماها
وساقتني مياه البحر حالاً إلى بلد اليهود على رباها
وجابوني لحكمون اليهودي أجلّ ملك الأرض جاها
فداوني وعالجني سريعاً فزالت كربتي مما دهاها
بقيت أنا ثمان سنين غائب وزال السر عني مع عناها
أسأل الله أن يحفظكم جميعاً على ما طالت الدنيا مدها

(قال الراوي): وكانت ليلة عند بنات كليب من أعظم الليالي وحضر تلك الليلة جميع أصحاب الزير ففرحوا وانشرحوا بقدومه وهنوه بالسلامة فقال لهم: من الأوفق أن تكتموا أمري لحينما أتجهز لقتال الأعادي وأحضر جوادي. ثم أعلمهم بخبر الحصان وأنه أبقاه في المركب عند القبطان لبينما يكون شاهد أهله وأقاربه. ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصداً شاطئ البحر. هذا ما كان منه، وأما مرة أبو جساس فكان من عادته أن يذهب كل يوم إلى ساحل البحر ويتجسس الأخبار ويعود في آخر النهار فاتفق أن عبدين من عبيده كانا قد نظرا المركب عند قدومه إلى ميناء حيفا فاستأجر قارباً وقصد ذلك المركب وعند وصوله إليه وجد ذلك الجواد المذكور فاندهش من رؤياه فسأل القبطان عنه فقال له القبطان: هذا حصان الزير وقد حضر معنا من بيروت وسار نحو يومين لزيارة أهله، ولم يكن القبطان يعلم ما هو جاري بين القوم من العداوة والحرب. لما سمع مرة بخبر المهلهل وأنه عاد سالماً غانماً استعظم الأمر وتعجب ولكنه كتم الخبر وقال للقبطان:

أتبيعني هذا الحصان؟ فقال: كيف أبيعه وهو مودوع على سبيل الأمانة؟ فقال: لا بد من ذلك إما أن تقبض ثمنه خمسة آلاف دينار أو آخذه منك بالقوة والاقتدار لأن ابني جساس ملك هذه الديار وبيدنا زمام الأحكام. وما زال يلح عليه بالكلام إلى أن امتثل وأجاب خوفاً من أخذه بالقوة والاغتصاب فقبض القبطان الدراهم وسار مرة بالحصان إلى عند ابنه جساس وهو كاسب غانم وأعلمه بواقعة الحال وقدوم المهلهل إلى الأوطان. ففرح جساس بالحصان لأنه كان من أجود خيول العرب ولكنه خاف من الغوائل وعلم أنه لا بد من تجديد الحروب بين القبائل فاجتمع بأهله وأعلمهم بالخبر وأن يكونوا على استعداد وحذر.

هذا ما كان من جساس، وأما الزير الفارس الدعاس فإنه عند وصوله إلى البحر سار إلى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان، فلما سمع منه هذا الكلام أراد أن يضرب عنقه بحد الحسام ولكنه توقف عن أذاه إكراماً لخاطر مولاه ثم أمره بالرجوع إلى عند الملك حكمون ليقص عليه الخبر ويطلب منه الجواد الآخر فامتثل القبطان أوامره وأقلع من تلك الساعة حتى وصل إلى بيروت فأنزل الزير في القارب وسار به إلى عند الملك حكمون ودخل عليه وهو في السراية فلما رآه حكمون فرح فرحاً شديداً وقال: أهلاً وسهلاً بالصديق الحبيب وترحب به غاية الترحب وأجلسه بجانبه وأقام بواجبه وأشار يقول وعمر السامعين يطول:

قال حكمون بن عزرا في بيوت	تشرح الخاطر وترضي السامعين
أنورت عليها الدنيا يا همام	يا مريع الخيل إذا طلل الكمين
يا مهلهل أنت عز المحصنات	أنت فخر للأناس الماجدين

قصدت أهلك ثم جيت لعندنا هل شفت أهلك يا مهلهل سالمين
إذا كان يلزم نجدة احكي لي حتى أسير بالجيش كله أجمعين
طيب قلبك يا مهلهل لا تخف ثم اطلب يا ضيا عيني اليمين

فلما سمع الزير كلامه شكره وأثنى عليه وأخبره بما جرى وكان من فقد الحصان وأن السبب في حضوره الآن أولاً لأجل سؤال خاطره الشريف وثانياً ليطلب منه المهر الثاني وختم كلامه بهذه الأبيات:

قد أتيت اليوم في قلب حزين على فقد مهري الأخرج الثمين
فإن شئت أعطني أخوه يا معز الجار وفخر العلين
لا أريد مال ولا كثرة نوال غير أبو حجلان مطلوق اليمين
يا ملك حكمون إن مالي كثير كل مال البر في يدي خزين

فلما سمع حكمون هذا المقال تبسم وقال: مهما طلبت منا لا نعزه عليك وجميع أموالنا بين يديك فوالله إننا لا ننسى جميلك ومعروفك على الزمان وإن أبو حجلان بعد رواحك من الأوطان أظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه أحد من السياس. ثم طلب منه أن يبقى عندهم عدة أيام ليستريح من متاعب الأسفار فاعتذر وقال: لا بد من الرجوع في هذا النهار. فأعطاه حكمون الحصان وسار به إلى المركب وعند وصولهم إليها نزل بالجواد إلى المدينة فركب وقصد أهله فاتفق في تلك الساعة أن رجلاً من قبيلة جساس أبصر الزير فعرفه وسار إلى عند جساس وأخبره بقدومه وقال له: إنني خائف عليكم من سطوته شاهدته في هذا النهار وهو مثل الأسد الكرار ثم أشار يقول:

يقول الشيخ يا أولاد مرة تعالي واسمعوا لي يا فوارس
أيا جساس يا همام اسمع أيا ملك يا أهل المجالس

فقد كنت قرب البحر سائر   رأيت خرج علي اليوم فارس
على أدهم أقب الضلع فارح   وفوقه درع من بولاد لابس
وفي كتفه قنا أسمر مكعب   بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فارس البيداء مهلهل   مريع الخيل للأبطال داعس

(قال الراوي): فلما فرغ ذلك من شعره ونظامه أجابه سلطان بن مرة بهذه الأبيات:

يقول اليوم سلطان ابن مرة   كلام الشيخ صادق يا فوارس
فإن كان أبو ليلى سيظهر   يخلي دمنا مثل البواطس
ويسبي من قبائلنا عذارى   ونترك أرضنا قفراً دواعس
ولا يقبل رجاء ولا غطاء   ويطرحنا على الغبرا نواكس

(قال الراوي): فلما انتهى سلطان من كلامه وقع الخوف في قلوب القوم وأخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم. وأما الزير فإنه كان قد جد في المسير حتى وصل إلى الديار والتقى بأهله وأنصاره فلما رأوه فرحوا به وأتت إليه اليمامة وشقايقها وكذلك إخوة الزير وكل من في الحي نساء ورجال فوقعوا عليه وقبلوا يديه وانتشرت الأخبار بقدومه إلى الديار بين الكبار والصغار حتى ملأت الأقطار فأقبلت الأبطال والفرسان وتواردت إليه السادات والأعيان وسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وهنأوه بالسلامة فشكرهم وأثنى عليهم وترحب بهم فذبح الذبائح وأولم الولائم ووعدهم بالمكاسب والمغانم. وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام أنشد عدي أخو الزير يقول:

يقول عدي أبيات فصيحة   أتانا الزير والمولى عطانا
وكنا قبل ما يأتي إلينا   بحال الذل في قهر حزانا

وجساس الردي عايب علينا　　يريد هلاك تغلب مع أذانا
فأمرنا بأن نبقى جميعاً　　على طول الليالي مع نسانا
ولا نركب خيولاً صافنات　　ولا نقل سيوفنا في حمانا
إلينا جيت يا جمل المحامل　　ويا كهف العذارى والأمانا
لربي الشكر ثم الحمد دايم　　إذا ما جئتنا نقهر عدانا
أيا سالم فانهض شد عزمك　　واركب فوق مطلوق العنانا
ونركب ثم نحمل فرد حملة　　على أولاد مرة في لقانا
ونترك دورهم بوراً وقفراً　　ونقتلهم وناخذ ثار أخانا

(قال الراوي): فلما فرغ عدي من كلامه تقدمت اليمامة نحو عمها وشكرت الله تعالى على سلامته ودعت له بطول العمر فضمها إلى صدره والتفت على من حوله وأنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل　　ألا يا بنات إن السعد جاكم
وأقبل سعدكم والشر ولى　　وراح الشر عنكم لأعداكم
ثماني سنين وسط البحر غائب　　وبالي عندكم مما دهاكم
وفرج لقي همي وغمي　　وخلصني وجئت إلى حماكم
حيث أتيت زال الشر عنكم　　ونلتم يا بنات مني مناكم
غداً جساس أقتله بسيفي　　وآخذ يا بنات بثار أباكم
وأنتم يا عدي ودريعان　　وباقي إخوتي تسلم لحاكم
فأتوا بالصوافن واركبوهم　　وهبوا جمعكم ومن معاكم
ودقوا طبلكم يا آل قيس　　وقيموا النار في سائر حماكم
وخبوني بعيد عن المنازل　　غداً جساس يبرز للقاكم
فلاقوه على خيل ضوامر　　وإني سوف أهجم من وراكم

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الأتراح وأيقنوا بالنصر والنجاح وما زال بنو قيس يجتمعون إلى الزير ويتواردون حتى صاروا في جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والنزال فأطعموا الجوعان وكسوا العريان وأوقدوا النيران ورجع الحي كما كان. هذا ما كان من أمر الزير وقومه، وأما بنو مرة فلما بلغهم الخبر وكيف أن بنو قيس قد التموا بعد التفريق والشتات من جميع الجهات وهم في أفراح ومسرات اجتمعوا بجساس وقصوا عليه الخبر وقالوا له: لو لم يكن الزير قد ظهر لما كان بنو قيس قد اجتمعت على بعض هذه الآلام وخالفت أوامرك ومراسيمك العظام. فقال لهم: كفوا عن هذا المقال ولا يخطر لكم الزير على بال فاستعدوا للحرب والقتال. فعند ذلك استعدت الفرسان الفحول وركبوا ظهور الخيول وتقلدوا بالسيوف والنصول ولقد أملوا بالنجاح وبلوغ المأمول وركب جساس حصان الزير الأخرج وسار بذلك الجمع الغفير ولما اقتربوا من حي بني قيس سمعت أبطال الزير دق طبولهم وصهيل خيولهم فهاجوا وماجوا فأمرهم الزير أن يتأهبوا للقتال ويلاقوهم إلى ساحة المجال فتبادروا في الحال وتقدمت الفرسان والأبطال وركب الزير على مهره أبو حجلان وسبقهم إلى الميدان وكمن في بعض الروابي والتلال مع جماعة من الرجال ولما اقترب جساس من رجال بني قيس قال لهم: لقد خالفتم أوامري وغركم الطمع وهجم عليهم بالرجال وأحاط بهم من اليمين والشمال فالتقوه بقلوب كالجبال واشتد القتال بينهم وعظمت الأحوال وجرى الدم وسال.

فلما رأى المهلهل تلك الأحوال لكز الحصان وتقدم إلى ساحة الميدان فشق الصفوف والكتائب ومرق المواكب وهو يهدر ويصيح من قلب فريح: أبشروا يا بني بكر بالذل والويل فقد أتاكم المهلهل فارس الخيل فسوف ترون يا أنذال ما يحل بكم من الوبال على ما علمتونا به من سوء الفعال فقد أقسمت برب الأنام الذي لا يغفل ولا ينام إني لا أترك منكم شيخ ولا غلام. ثم إنه مال وجال وضرب بالسيف العال وتبعه الفرسان والأبطال من اليمين والشمال، فلما سمع جساس صوت المهلهل انقطع قلبه من الخوف والوجل ولكنه ثبت في ساحة الميدان خوفاً من الهلاك والقلعان وأخذ ينخي الأبطال والفرسان على القتال والثبات والهجوم على لقاء الأعادي قبل الممات فثبتوا ثبات الجبابرة وقاتلوا قتال الأسود الكاسرة لكنهم لم يقدروا أن يثبتوا أكثر من ثلاث ساعات حتى انصبت عليهم النكبات وبلوا ببلايا لا تطاق من سيف المهلهل فارس الآفاق فولوا الأدبار وأركنوا إلى الهزيمة والفرار بعد أن قتل منهم عشرة آلاف فارس كرار وتبعهم الأمير جساس وهو في قلق ووسواس وغنموا بنو قيس منهم غنائم عظيمة ومكاسب جسيمة ورجعت إلى الديار بالعز والانتصار والبطش والاقتدار وفي مقدمتهم الأمير مهلهل الجبار وهو مثل شقيقة الأرجوان مما سال عليه من أدمية الفرسان ولما وصل إلى المضارب بقواد المراكب لاقته بنات أخيه وجماعته من أقاربه وأهاليه فشكروه على تلك الفعال وقالوا مثلك تكون الأبطال والفرسان ثم إنه جلس في الخيام وجلست حوله السادات العظام وجبابرة الصدام فتحادثوا في الكلام وشكروا رب الأنام على بلوغ القصد والمرام. وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد إلى المهلهل فارس

الطراد وقالوا: بالله عليك أن تنشدنا شيئاً من أشعارك لأن قلوبنا مشتاقة على الوقوف على أخبارك وما جرى لك في أسفارك. فعند ذلك أنشد يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... فكل مقدر لا بد يأتي
نزلت يا إخوتي وأبناء عمي ... بجنح الليل لا يدروا صفاتي
فقالوا ضيفنا شرطوا علينا ... فلا نوقد النار في الفلاة
تكافحت اليمامة مع حمامة ... وقالوا عمنا هيهات يأتي
فقلت لها لبيك جئتك ... أنا مردي السباع الكاسرات
فجيت لعندها في قلب صامد ... وجدت عيونها تقرحات
قلت يا يمامة ليش تبكي ... جرحت بالبكا قلبي لأني
فهمك يا يمامة ليس تبكي ... إذا ثارت حروب الفلاة
أنا همي كراديس الفوارس ... إذا ما وهجت نار الغداة
وجيت أنا على جساس رامح ... هرب مني وصاح أنوا العداة
وقال الزير جانا يا بلانا ... وطالب تاره بالمرهفات
فقولوا لابن مرة يأتي عندي ... أتاه الزير دباح العداة

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه شكرته إخوته وجميع أقوامه. فعند ذلك تقدم سالم المهيا إليه وقبله بين عينيه وأشار بقوله:

على ما قال سالم المهيا ... مهلهل جيت هذا اليوم يومك
وزال النجس والتوفيق أقبل ... وأضحى القطر يزهو في قدومك
ولما جيت يا زين الفوارس ... أزلت همومنا زالت همومك
فقم إركب عليهم يا مهلهل ... نهار وليل ما أحد يلومك
وخذ الثأر من جساس حالاً ... وافرج همنا وأخلي همومك

(قال الراوي): فلما فرغ سالم من شعره طابت قلوب الجميع وعادوا لما كانوا عليه من الفرح والمسرة. وأما بنو مرة ابتلوا بالذل والويل من حرب الزير فارس الخيل، ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، ركب الأمير مهلهل في مائة ألف بطل وطلب حرب القوم فألقاه جساس في ذلك اليوم وكان بمعيته مائة ألف مقاتل بين فارس وراجل، فانتشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الأهوال وقاتل المهلهل حتى استقل فنكس الأبطال الفحول عن ظهر الخيل وقتل جماعة من السادات الأعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم وشاع ذكرهم بين الأعارب والأعاجم، فمنهم الأمير شهاب المكنى بعقاب وغيره من السادات والأنخاب. واستمر القتال على هذا الحال طول ذلك النهار فانكسر بنو مرة أشد انكسار ورجع المهلهل بالغزو والانتصار ولما كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالرجال وتقاتلوا أشد قتال ولما تقابلت الصفوف تبادرت المئات والألوف وبرز أخو جساس بين الصفين ولعب برمحين بين الفريقين وطلب قتال المهلهل فانطبق عليه وحمل كأنه قطعة من جبل أو قلة من القلل فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالصفائح وثبت شاوش أمام الزير ثبات الأبطال والمغاوير لأنه كان من الأبطال المشهورة والفرسان المذكورة استمر الاثنان نحو ساعة من الزمان وهم في ضرب وطعان وكان الأمير شاوش قد حتم على نفسه أمام الأبطال إما أن يهلك في ذلك النهار أو أن يظفر بخصمه ويعيش في عز وإقبال ثم صاح على المهلهل وطعنه بالرمح قاصد قبض روحه فالتقاها المهلهل بالدوقة فراحت خائبة بعدما كانت صائبة ثم تقدم المهلهل وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض

قتيلاً وفي دمه جديلاً ثم هجم على الرايات وطعن الفرسان والسادات وقتل الرجال ومدد الأبطال في ساحة المجال وفتك فيهم فتك الأسود الكاسرة وفعل أفعالاً تعجز عنها صناديد الجبابرة وفعلت جميع أبطاله مثل أفعاله فقاتلوا القتال المنكر وأذاقوا الأعداء الموت الأحمر، فلما رأى جساس ما حل بقومه من العذاب استعظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب وزاد اكتئاباً على اكتئاب وذلك على فقد أخيه ليث الغاب لأنه كان يحبه محبة عظيمة ومودة جسيمة فبكى وانسحب وولى يطلب لنفسه الهرب وتبعه رجاله وأبطاله ورجع الزير بباقي الفرسان إلى المنازل والأوطان وهو مثل شقيقة الأرجوان مما سال عليه من أدمية فالتقته اليمامة بالاعتزاز والكرامة ثم نزل في الخيام مع السادات الكرام فأكلوا الطعام وشربوا المدام وكان في كل يوم يركب حسب عادته لحرب القوم حتى بلغ منهم غاية المنى وأبلاهم بالذل والعنا، فلما طال المطال وعظمت على بني مرة الأهوال جمع جساس الرجال ومن يعتمد عليهم من الأبطال وقال لهم: ما هو قولكم في هذا الأمر العسير فقد حل بنا التدمير وهلك كل سعيد وأمير وإن طال القتال لم يبقَ أحد من الرجال فقال أخوه سلطان: الرأي عندي أن تأخذ أختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة وتذهب إليه وتقع عليه وتطلب منه كف الأذى والضرر وتعطيه دية أخوه مهما أمره وتقيمه ملكاً على بلاد الشام وتدفع له الجزية في كل عام. فقال جساس: ومن يذهب ويقص ذلك الكلام عليه؟ قال: أنا وأنت يا أخي. فتبسم جساس وقال: سمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فيزحف إليه على رجليه؟ فقال سلطان: أنا أذهب إليه بنفسي لأن بيني وبينه مودة قديمة ومحبة مستقيمة. ثم إنه نهض في

الحال وتأهب للسير والترحال وأخذ معه أخته الجليلة وبعض من نساء القبيلة وقصد المهلهل حتى وصل إليه وسلم عليه وقال: بالله عليك أن تصفح عنا فقد أهلكت رجالنا ولم تبقِ أحداً منا وقد أتيتك الآن مع امرأة أخيك الجليلة وأكابر نساء القبيلة تقع على ساحة أعتابك وتطلب من جنابك وتبلغك غاية الأرب من الفضة والذهب ونقيمك ملكاً على هذه الديار ونكون طوع لك مدى الأعصار لأنك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ثم أنشد هذه الأبيات بحضور الأمراء والسادات:

قال سلطان بن مرة في بيوت   يا مهلهل استمع مني القصيد
ليت عمرك يا مهلهل ألف عام   يا حماة البيض في يوم الشديد
فاعف عنا يا سياج المحصنات   ليت عمرك كل يوم في مزيد
نحن منك وأنت منا يا همام   كلنا أولاد عمك يا رشيد
فاعف عنا ثم دعنا في حماك   تحت ظلك عيشك يبقى رغيد

فلما فرغ من شعره ونظامه أجابه المهلهل:

افتهم يا ابن عمي ما أريد   افتهم فحوى كلامي في قصيد
ليس لي ذنب في أي الأمور   وأنا في حقكم لست عنيد
غصب عني يا سياج المحصنات   ليت عمرك يا ولد عمي يزيد
كل ذا جاري عليكم يا رجال   على يمامة بنت أختك الأكيد
اليمامة كل يوم تقول   خذ بثأري أيها البطل العنيد
فإن عفت أنا عنكم أعف   كل قول صادق والله شهيد
وإن أبت لا أخالف قولها   إنني عن أمرها لست أحيد

(قال الراوي): فلما انتهى الزير من شعره ونظامه فقال للسلطان ومن حضر معه: إنني لا أكف الحرب والقتال ولا أرفع عنكم السيوف

الصقال إلى يوم القيامة أو أتمنعني اليمامة فاذهب إليها وخاطبها بما خاطبتني به أمام هؤلاء الأعيان فعساه أن تجيب طلبك يا سلطان. فعند ذلك قصد سلطان اليمامة ابنة أخته الجليلة ومن حضر معه من نساء سادات القبيلة فدخلوا جميعاً إليها وسلّموا عليها، وقبلت الجليلة بناتها وقالت لهن: أما كفى يا بنات الأكارم والوقار فقد قتلت رجالنا وهلكت فرساننا وساءت أحوالنا وصارت عبرة لمن اعتبر ومثلاً بين البشر. فأجابتها اليمامة: أنا لا أصالح حتى لا يبقى منكم أحد يقدر أن يكافح إن كان عمي عجز عن قتالكم فأنا أنوب عنه وألتقي بأبطالكم. ثم إنها ختمت كلامها بهذا الشعر والنظام:

قالت يمامة من ضمير صادق ... يا جليلة أقصري عنا عناكم
أنت وخوالي وكل عشائري ... لا تزيدوا لفظكم ولا لغاكم
قتلتم الماجد كليب والدي ... غدراً وما له ذنب معاكم
جساس طعنه في قفاه بحربة ... ودعا على الغبرا حقير حداكم
أنا وأخوتي بقينا بدله ... نمسي ونصبح ولا ننسى بلاكم
أنا لا أصالح حتى يعيش أبويا ... ونراه راكب يريد لقاكم

(قال الراوي): فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت هي وأختها مع باقي النساء إلى الحي بدون أدنى إفادة وأخبروا الأمير جساس بواقعة الحال وما سمعوه من المقال. فاعتراه الخوف والانذهال وأيقن بالهلاك والوبال فقال أخوه سلطان وكان ذا مكر واحتيال: إني سأهلك الزير أيها الأمير وأقوده إليك عند الصباح كالبعير. فقال: ماذا عولت تفعل وما هو العمل؟ قال: إني أقصد الميدان في جماعة من الأعوان وأحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيهم

بالقش حتى يخفوا عن عيون العساكر فما كان الصباح والتقى الجحفل بالجحفل فتبرز أنت إلى المهلهل وتكون أنت عارف بهم فتقوده إليهم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة فيسقط ويهلك في هذا الشرك فنخلص من شره ونبلغ ما نتمناه. فاستصوب جساس هذا الرأي واستحسنه وخرج ذلك الليل مع أخيه سلطان في جماعة من العبيد والأعوان حتى وصلوا إلى المكان، فحفروا ثلاث حفائر عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى يخفى عن العيون ثم رجعوا إلى أماكنهم وهم مسرورين، وباتوا تلك الليلة على مقالي النار وهم ينتظرون طلوع النهار. هذا ما كان من هؤلاء، وأما الزير البطل النحرير فإنه ركب في الصباح بفرسان الكفاح وقصد ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعسكر ثم انفرد بنفسه نحو تلك الحفائر وأخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد فرآه بعض الفرسان وهو يجول في ذلك المكان على ظهر الحصان فأعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له إن خصمك ظاهر للعيان وهو في تلك الناحية من الميدان فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الأمل فلما اقترب منه ابتعد جساس عنه فتبعه المهلهل على الأثر فسقط في إحدى الحفر فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقي الناس بقصد أن يطعنوه ويهلكوه ويعدموه، فلله در الحصان أبو حجلان فإنه كان من عجائب الزمان وغرائب الأوان أخف من الغزلان وأسبق من البرق عند اللمعان، فإنه عندما ضرب بحافره الأرض ارتفع حتى صار بين الفرسان بالميدان فرجعت الخيل عنه مدبرة فاستعظم تلك الأمور المنكرة وغاب عن الوجود حتى صار في صفة المفقود فرأى جساس ينخي أبطاله ويصيح على رجاله فتقدم نحوه

بالجواد ليشفي منه غليل الفؤاد فاتفق المقدر بوقوعه في الحفرة الثانية من تلك الحفر فوثب به الجواد وانتصب أسرع من النظر إذا وثب حتى صار على وجه الأرض فانقلبت عليه العساكر على بعضها البعض فزاد بالزير الكدر وطار من عينيه الشرر فقصد الأمير جساس دون باقي الناس ليقتله ويعدمه الحواس فكبى به الجواد في الحفرة الثالثة وكانت عليه أقبح حادثة وكان جواده قد أعياه التعب وضعف قواه وانحل منه العصب حتى لم يعد يمكنه أن يفعل كما كان يفعل وكذلك الأمير مهلهل فقد انهد حيله وطاش واعتراه الخوف والارتعاش وأيقن بالهلاك والممات وآيس على نفسه من الحياة فكانت غلة عظيمة ودامية جسيمة، فلما بلغ جساس الأمل ونجح بذلك العمل أيقن ببلوغ الأرب وصاح من شدة الطرب على باقي رجاله ومن يعتمد عليه من أبطاله: يا ويلكم أدركوه واطمروه واقتلوه فإن تخلص هذه المرة من هذه الحفرة لا تتأملوا بنجاح أو نصرة. فلما سمعت الرجال منه هذا المقال قصدوا ذلك المكان من اليمين والشمال وكانت أيضاً بنو تغلب قبيلة الزير فارس العجم والعرب قد أقبلت بأبطالها وفرسانها ورجالها وأنشب بينهم وبين القوم قتالاً لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم وكان القتال في ذلك اليوم بجانب تلك الحفر ولما عظمت الأهوال وتكردست جثث القتلى على الأرض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال هجم جساس أمام الناس وقال للفرسان والأبطال أدركوني في هذا النهار وأسعفوني بالتراب والأحجار واردموا هذه الحفرة في ساعة الحال وأنا أرد عنكم هجمات الرجال. فتقدموا من عجل وبادروا بإجراء هذا العمل غير أنهم لم يبلغوا الأمل لأن إخوة الزير والفرسان المشاهير هجموا عليهم من اليمين واليسار

وضربوا فيهم السيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار وكان الأمير مرة بالقرب من تلك الحفرة فرآه عدي أخو الزير فتقدم إليه وقبض عليه وألقاه في تلك الحفرة بالعجل وقال: خذ عمك يا مهلهل ولما صار بالقاع ضربه بالسيف فقتله ثم أخرجوا الزير من تلك الحفرة بالقوة والاقتدار فعند ذلك انشرحت من بني تغلب القلوب وزالت عنهم الغموم والكروب وأيقنوا بالفلاح والتوفيق والنجاح وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا أعداءهم بأسنة الرماح ومال أيضاً الزير على القوم ونادى اليوم ولا كل يوم وفي الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جوانب الآفاق من ضرب السيوف الدقاق والرماح الرقاق وجمدت من القوم الأحداق وفعل الزير في ذلك اليوم ما لا يطاق، وما زالوا في أشد قتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت بنو مرة بالويل والحسرة والمهلهل بالنجاح والنصرة فنزل عن ظهر جواده وخلع آلة حربه وجلاده وجاءت السادات وأكلت من زاده ولما جلس في الصيوان ونادى على عبده أبي شهوان بإحضار المدام إلى الديوان فأحضره بالعجل فتناوله منه المهلهل ومن حضر في ذلك المحفل فعند ذلك تذكر الزير ما جرى له في ذلك اليوم المهول فأنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... فدمع العين هطال عمانا

لقد قتلوا أخي أولاد عمي ... وقالوا ما رأوه إلا جبانا

ولا يدرون بأسي واقتداري ... فقطعتهم ولم أخشَ الزمانا

أتتنا في كليب أولاد مرة ... أتونا داخلين على نسانا

وقالوا كف عنا يا مهلهل ... فقد حكمت سيفك في أذانا

فاطلب ما تروم اليوم منا واتركنا فقد صرنا حزانا
فقلت لهم روحوا لليمامة رضاها اليوم أحسن من رضانا
قتلنا في كليب ألوف قوم فما فيهم ردي ولا جبانا
قتلنا من بني مرة إمارة ملابسها ثياب الطيلسانا
فراحوا الكل قد وقعوا عليها وقالوا عمك أرسلنا عيانا
فقالت اذهبوا أولاد عمي فهذا القول ضحك في لحانا
فإنا لا نصالح في كليب إلا أن نراه على حصانا
وقد حفروا لقلعاني حفائر وغطوها وقالوا قد كفانا
فركبوا خيولهم وأتوا حداها وقالوا قد أتانا قد أتانا
وقف جساس ما بين الحفائر هجمت عليه أطعنه السنانا
فولى هارباً من هول حربي ومرة قد قتلناه عيانا
فكوني يا يمامة في انشراحِ وحظ دائم في طول الزمانا
فسوف أبيد جساس بسيفي وكل سيد يبغي أذانا

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره جميع أقوامه. ولما كان الصباح رجعوا على ما كانوا عليه من الحرب والكفاح وما زالوا في قتال وصدام مدة طويلة من الأيام، ولما طال المطال اتفقوا على توقيف الحرب والقتال وأخذوا هدنة شهرين لراحة الفريقين فاتفق في بعض الأيام بينما كان الزير خارج الخيام معه جماعة من الخدام وإذا برجل يقود مهر أدهم كامل الصفات فاستحسنه الزير غاية الاستحسان وقال لقائده: ما هو أها هذا الحصان يا حلو الشمائل إنه من الخيول الأصايل. فقال: قد أتيت به من أبعد الحلل لأهديه للأمير مهلهل. فتعجب الزير من الاتفاق الغريب وقال: لقد نلت مرادك من قريب، فأنا

هو مهلهل الذي أنت قاصده. فأخذ منه الجواد وأمر له بألف دينار وبلغه مقاصده فدعا له بطول العمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء. وسار من يومه إلى قومه فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله على جميع الخيول الجياد. واتفق في ذلك النهار أنه التقى برجل اختيار وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام ووراءها كرّ ابن سبعة أيام وهو يبرطع خلفها وتارة من قدام فلما رآه الزير أعجبه وقال لذلك الشيخ: أتبع هذا الكر؟ فقال: بكم. فقال: ليس على الكريم شرط. فأعطاه الزير مائة دينار وأخذه منه وسلمه إلى السايس فرباه مدة أربع سنوات ثم دخل الزير ذات يوم إلى الإصطبل فنظر الكر وهو متعافٍ فأمر السايس أن يضع عليه عدة ولجام فأخرجه وأسرجه ولجمه فركب عليه الزير وساقه ورجع إلى الوراء فرده إلى اليمين فراح شمالاً واجتهد أن يمشيه فما كان يمشي معه فغضب منه ولكزه برجله في الركاب فتضايق المشؤوم من فعاله وضربه بنعاله ضرط ضرطة من شدة الوجع كأنها صوت مدفع فغضب الزير وتألم وضربه بالسيف فأورثه العدم ودخل إلى صيوانه فاجتمع بنوابه وأعيانه وقال: لقد جرّبت دني الأصل وأكرمته فضاع فعلي معه وما قدمت مثل هذا العمل أيها السادات الأخيار إلا لتعلموا أن الحمار يقتني الحمار. ثم أنه ركب ذلك الحصان فوجده من عجائب الزمان فزاد انشراحه فيه فأمر السايس أن يسوسه ويداويه ثم أنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... بلوم الشعر ما تغلي يمالي
أبا غالي رضيت الخيل تركب ... تعالي واسمعي مني مقالي
جمع الخيول للحمر حوادم ... شبيه الصب تخدمها الموالي

وأما الشقران طاروا لصدق   بنات الريح تسبق في المجال
وأما الخضر مركوب الأمارا   فتركبها الملوك وكل والي
وأما الدهم زيدوهم عليقاً   وسيبوهم لدهمات الليالي

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه شكره قومه على حسن اهتمامه، ثم استعد الفريقان للقتال وجرت بينهم عدة وقائع وأهوال انتصر بها المهلهل وكسب أهوالاً كثيرة وقتل سادات كثيرة حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها قلّت واضمحلت.

(قال الراوي): فبينما هم في حالة الذل والانكسار وإذا بغبار قد علا وثار قاصداً بلادهم وتلك الديار فشخصت إليه الأبصار ساعة من النهار إلى أن ارتفع وتمزق وبان من تحته ألف فارس وكلهم بالسلاح والدوق وفي أولهم فارس بالحديد غاطس كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من ذيل جبل وعلى رأسه البيارق والرايات والسناجق. فلما رآه جساس استبشر وأيقن بالفرج بعد الشقاء والكدر ولما اقترب للعيان وتأملته الفرسان وإذا به أسد الآجام الأمير سيبون ابن الأمير همام وكان المذكور قد خرج في جماعة من فرسان الصدام للغزو على بلاد الروم وذلك من عهد وقوع الزير في البحر كما سبق الكلام. فلما عرفوا وتحققوا خرجوا إليه واستقبلوه وفرحوا بقدومه إلى الديار وكان ذلك اليوم عندهم أعظم نهار فذبحوا الذبائح وطعموا الغادي والرائح وكان أفراح الخلق أبوه همام وأمه ضباع حيث لم يكن لهما غيره سوى الذي قتله الزير على بئر السباع. فلما نزلوا بصيوانه بأبطاله وفرسانه خلع عدته وغير بذلته ودقت له النوبات وقامت الأفراح والمسرات وعمل جساس وليمة عظيمة لها قدر وقيمة استدعى إليها جميع الأكابر وأمراء القبائل والعشائر وكان

شيبون قد وجد السادات والأعيان في هموم وأحزان فسأل عن ذلك الشأن فقال جساس له: لا تسأل يا ابن أخي عما أصابنا ودهانا من خالك الزير المهان فإنه لم يكتفِ بقتل أخيك شيبان حتى جعلنا مثلاً بين العربان على طول الزمان، فإنه أفنى رجالنا وأهلك أبطالنا وقد حرمنا هجوع الليل وهدّ منا القوى والحيل كل هذا وهو لا يقبل منا دية ولا مال ولا فدية وقد أعلمناك بالقضية وأوقفناك على باطن الطوية. فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام من عظم ما قاله احمرت عيناه وشتم خاله وأوعدهم بالمساعدة والمعاضدة وأن يكون معهم على قتال خاله يد واحدة ثم نظم هذه القصيدة وأرسلها لخاله على سبيل الملام والتهديد:

قال شيبون ابن همام الأمير	حامي الزينات طعان العدا
مرعب الفرسان في يوم اللقا	ساقياً للعدى كأس الردى
ضرب سيفي يقطع السيف المتين	ثم يقدح الصخور الجمدا
كل من يبغى قتالي يرتدي	ويرتمي فوق الصعيد ممددا
لم يبق لي مقارن في المجال	حين يلقوني يولوا شردا
وأنا يا خالي مهلهل يا همام	شد عزمك للقتال إلى غدا
لا تقل يا خالي ما أعلمتني	يا قليل العقل لا تتمردا
أبرز إلي في الصباح ولاقني	ثم أبشر يا مهلهل بالردا

(قال الراوي): فلما فرغ شيبون من شعره ومقاله ختم الكتاب وأرسله إلى خاله مع رجلٍ من أبطاله. فلما فتحه الزير وقرأه وعرف فحوى معناه أجارت عيناه وغاب عن دنياه وقد شق عليه وتأسف وصفق

كفاً على كف وقال: إنه معذور في هذه الأمور لأنه جاهل مغرور فاقتضى أن ينتصح قبل أن يفتضح. فأجابه على أبياته يقول:

قال أبو ليلى المهلهل إنني مفرج الكروبات في يوم الزحام
يا فتى شيبون يا ابن أختي ضباعا تهددني في كتابك يا غلام
ثم تطلبني إلى سوق المجال وأنت قصير على ضرب الحسام
احتفظ من أن تجهل يا أمير الجهل يسقيك كاسات المدام
اطرد الشيطان إبليس اللعين وانتصح من قول خالك يا همام
لا تخالفني واسمع ما أقول يقتلك جهلك وما تبلغ مرام
رد عما أنت فيه لا تزيد إن كنت تبغي حربي والصدام
شد عزمك غداً نتلاقى سوى من طلوع الفجر إلى وقت الظلام

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه أرسل الكتاب إلى ابن أخته شيبون فلما فتحه وعرف ما احتوى عليه من المضمون مزقه ولم يكترث ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ودقت طبول الحرب والكفاح وركب شيبون وجساس وكذلك الزير الفارس الدعاس والتقوا بأبطالهم ورجالهم وتشددا في قتالهم وكان شيبون قد برز إلى ساحة الميدان وتبعه الأبطال والفرسان والتقى بفرسان تغلب وفعل بهم العجب فما صدم فارساً إلا أعطبه ومن ظهر جواده أقلبه ثم صاح وحمل بقلب أقوى من جبل وطلب براز خاله المهلهل وكان الزير لما شاهد أفعال ابن أخته وما فعل بأبطاله ورفقته حمل عليه واحمرت أماق عينيه وقال له: اذهب يا وجه العرب قبل أن تهلك وتعطب. فقال: إلى أين أذهب يا خالي وأنت غاية بغيتي وآمالي؟ فوالله لأقيلك في هذا اليوم وأطفي أخبارك من بين القوم لأنك طغيت وتجبرت وافتريت. فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد

والتقاه بقلب شديد وجرى بينهما في القتال وقائع وأهوال تشيب الأطفال ولما طال المطال قال له الزير أمام الأبطال: ارجع يا ابن أختي بأمان قبل أن يحل بك الهوان وتلحق بأخيك شيبان فارجع إلى أهلك وأمك وأرسل لي أبطال قومك مع جساس عمك. فلم يجبه شيبون بكلام بل كان يقاتله كسبع الآجام وكان الزير كلما حكم عليه الضرب في الحرب تمنع عن أذاه شفقة عليه وإكراماً لخاطر والديه وما زال يقاتله ويداريه وينصحه بالرجوع عما فيه إلى أن أقبل الظلام فعند ذلك توقف القتال ورجعت الفرسان والأبطال عن ساحة المجال ثم التقوا في اليوم الثاني وكان أول من برز إلى ساحة الميدان الأمير شيبون فصاح وطلب براز المهلهل فالتقاه الزير ونهاه عن قتاله فلم ينتصح بمقاله بل تقدم إليه وهجم عليه وأشار يقول متهدداً إياه أمام الفرسان والفحول:

أيال شيبون ابن همام الأمير ... فارس الفرسان في يوم النكير
إستمع يا زير قولي وافهم ... لا بد من قتالك يا وغداً حقير
ما مقالك مخلص مني ولا ... من حسامي اليوم لو إنك تطير
ثم آخذ ثأر أعمامي الجميع ... كم بطل صنديد صيرته حقير
ليس لك قلب على أختك يحن ... وأولاد عمك ذاقوا منك النكير
كم قتلت منهم خلقٌ كثير ... كم يتمت كل طفل صغير
سوف ترى حربي يا مهلهل ... في لقاء الأبطال مالي نظير
قد أخبروني يوم جئت بأنك ... يا قليل العقل تركب الحمير
ما يقني الحمار إلا الحمار ... ما أنا مثلك ولا عقلي صغير
هات لي سيفك ورمحك والثياب ... هات أبو حجلان كالطير يطير
حتى أقتلك من حسامي والقنى ... وتطلب الجير ومثلي من يجير

إن كنت لا تنصح فهذا حربنا ويكون النصر من رب القدير

فلما سمع الزير هذا الكلام وقع عليه أشد من ضرب الحسام فأجابه يقول:

قال أبو ليلى المهلهل ثم قال أنت يا شيبون ما عاد لك نعير
هرجت يا شيبون ما في قولك كثير الجحش لا تحمل كما يحمل ؟؟؟
لو سقيت الجحش من سكر وسمن ولو خلطت له السوير بالشعير
لا عاش أصله ما ينفع منه الجميل أكيد هو مجنون من يقني الحمير
وأنت يا شيبون لو لم تكن حمار ما رجعت اليوم إلى حربي تغير
فإني قد عفوت عنك البارحة من أمك وأبوك نعم النصير
وأنت تعلم أنني سبع الرجال قتلت منكم اثني عشر ألف أمير
هذا من غير التوابع والغريب تاه فيهن العدد ناس كثير
كم نصيحة نصحتك لا تنتصح جاهل سوف تقع في وسط نير
لم يبقَ لي ذنب إن أتاك مني ضرب يهدي الأبدان ما عاد لك مجير
دونك الميدان يا شيبون قم وقوِّ عزمك لا يكن باعك قصير

(قال الراوي): فلم يلتفت شيبون إلى كلامه ولا اكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة أسد الغاب وأخذ معه في الطعان والضرب فالتقاه المهلهل بالعجل بقلب أقوى من الجبل واشتد بينهما القتال وعظمت الأهوال حتى نعمت من تحتها الخيل وارتخى منهما العزم والحيل ومالا على بعضهما كل الميل وكان الزير يطاوله ويجاوله واستمرا يقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى استعظمت من قتالهما الفرسان وشخصت إليهما عيون الشجعان وكان الأمير شيبون يود أن يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخر بقتله على أهله وأقرباه إلى أن اغتنم

الفرصة عليه فهز الرمح وطعنه بين ثديه فخلي المهلهل منها فراحت خائبة بعدما كانت صائبة فزاد الزير غضباً وتوقد قلبه والتهب وصمم على أن يسقيه كأس العطب فجذب سيف حكمون وقال اليوم أريك يا مجنون كيف الضرب يكون لأني نصحتك فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت ثم تقدم إليه وهجم عليه وضربه على مفرق رأسه فشقه إلى تكة لباسه فوقع على الأرض يتخبط بعضه ببعض فلما رآه المهلهل وهو قتيل يتململ ندم على ما فعل فتحسر وهطلت الدموع من عينيه فلما قتل الأمير شيبون احمرت من بني مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وأيقنوا بالهلاك والشتات ولكنهم أخفوا الكيد وأظهروا الصبر والجلد وقاتلوا قتال الأسود وطلبوا الرايات والبنود فالتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهم بالسيوف البواتر وأحاط بهم إحاطة الخواتم بالخناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنائم جسيمة، فلما رأى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه ولى يطلب الهرب خوفاً من العطب وتبعه فرسانه وقد أبصروا أن ذلك اليوم العجيب من قتال بني تغلب فرجع عنهم الزير وهو حزنان على فقد ابن أخته الأمير شيبون فنزل في الصيوان مع الأمراء والأعيان ولم يكن له دأب إلا البكاء والانتحاب ولما أتى وجلس وأنشد هذه الأبيات وهو من الحزن على آخر نفس:

الزير أنشد شعراً من ضمائره	العز بالسيف ليس العز بالمال
شيبون أرسل نهار الحرب يطلبني	يريد حربي وقتلي دون أبطال
نصحته عن قتالي ولم يطاوعني	بارزته فتجندل في الأرض بالحال
المال يبني بيوتاً لا عماد لها	والفقر يهدم بيوت العزّ الغالي
دع المقادير تجري في أعنتها	ولا تبين إلا خالي البال
ما بين لحظة عين أنت راقبها	يغير الله من حالٍ إلى حال

فكن مع الناس كالميزان معتدلاً ولا تقولن ذا عمي وذا خالي
عم الذي أنت مغرور بنعمه خال الذي أنت من أضراره خالِ
لا يقطع الرأس إلا من يركبه ولا تريد المنايا كثرة المال

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من كلامه انطرح على فراشه من شدة حزنه على ابن أخته. ولما بلغ قتل شيبون أبوه همام وأمه ضباع احترق قلبها عليه لأنه كان ابنها الوحيد بعد أخيه شيبان وكانت الفرسان قد أتت بجثته إليهما فبكيا بكاءً شديداً ومزقا عليه الثياب وبعد ذلك دفنوه في التراب. وفي اليوم الثاني ركب الأمير لقتال الزير وتبعه جساس وباقي الأبطال والفرسان وبلغ المهلهل الخبر فركب في أبطاله وفرسانه ولما التقى الفريقان وتقاتل الجمعان برز الأمير همام إلى معركة الصدام وطلب براز الزير المهلهل وكان قد غير صفاته ووضع لثاماً على وجهه حتى لا يعرفه أحد فبرز إليه وهو لا يعلم بأنه الأمير همام فاقتتلا ساعة من الزمان وكان همام قد ضرب الزير بالحسام قاصداً أن يسقيه الحمام فخلى الزير منها فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح في صدره خرج من يلمع من ظهره فوقع عن ظهر الجواد كأنه طود من الأطواد فالتفت على الزير وقال له وهو على آخر رمق: آه يا مهلهل لقد قتلت ابن أختك نهار أمس واليوم تقتل صهرك همام. فلما سمع الزير هذا الكلام تنغص عيشه وزاد همه وكدره وقال له: يا همام، قال: نعم؟ قال: ما عاهدتني أنك لا تقاتلني أبداً وأننا نكون أصحاب على طول المدى؟ فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالي وأنت تعلم بأنك لست من رجالي؟ فقال: لقد جرى القلم بما حكم فانقضت حياتي ودنت وفاتي وهذا الأمر مقدر بأمر رب البشر وما دام الأمر كذلك يا فارس المعارك

فكف أذاك ودواهيك واجعلني فدى أخيك. فقال: والله يعز علي فقدك ولا عاد يطيب لي عيش من بعدك لكنني لا أكف الحرب والصدام حتى لا يبقى من بني بكر شيخ ولا غلام. ثم إنه بعد هذا الكلام هجم على المواكب ففرقها وطعن في أبطالها فمزقها فتأخرت عنه الفرسان ورجعت إلى الأوطان وهي في حالة الذل والهوان. ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن عقلها وقد عظم مصابها وسارت إلى بني تغلب ودخلت على أخيها الزير وقلبها يلتهب وقالت له بكلام الغضب: هكذا تفعل يا أخبث العرب؟ تقتل أولادي وبعلي وتحرمني أهلي وتتركني حزينة طول الدهر أقاسي الذل والقهر؟ هكذا تكون الإخوان الذين يدعون الفضل والإحسان؟ فوحق الإله القادر الفاحص القلوب والضمائر أن موتي ألذ عندي من الحياة وأفضل فأنت نسيت الجميل والمعروف وقابلتني بالغدر والمتلوف بعد أن خلصتك من الحريق وكشفت عنك ذلك الضيق. فلما سمع الزير منها ذلك الخطاب أظهر الحزن والاكتئاب وتلقاها بالإكرام والترحاب ثم اعتذر لها بالغلط وأخذ يطيب خاطرها ويعزيها عما فرط وأمرها بأن تسكن عنده بخدمها وحواشيها فامتثلت كلامه وقامت في بيت أخيها.

(قال الراوي): فلما عظم الأمر على جساس وبني بكر وكثرت فيها السبي والقتل أرسلوا يستنجدون أهل اليمامة فأمدوهم برجل منهم يقال له الفند بن سهل وكان من جبابرة الزمان وفرسان الأوان لا يبالي بالأهوال ولا يخاف كثرة الرجال وكان يلقي نفسه على المخاطر ويصيد الكواسر فسار إلى مساعدة القوم من ذلك اليوم وقد انتخب من الشجعان

سبعين فارساً مثل العقبان يقاربون في الشجاعة والفروسية والهمة العليا وكانت أهله قد كتبت إليهم تقول: قد أمددناكم بعشرة آلاف فارس من الفحول وبهم تنالوا من أعدائكم القصد والمأمول. فلما قدموا إلى تلك الأوطان ورآهم جساس وباقي الأبطال اعتراهم الانذهال لأنهم لم يروا أكثر من سبعين تحت راية الفند الأسد العربند فقالوا: أين جماعتك الباقين؟ فقال الفند: أنا بسبعة آلاف فارس وأصحابي ثلاثة آلاف مداعس. فتبسموا من هذا الكلام والتقوهم بالإكرام والاحترام فذبحوا لهم النوق والأغنام ونصبوا لهم المضارب والخيام ثم استعدوا للحرب. وسمع بهم المهلهل وتزيّد في الخيل والرجال وزحف من يومه في فرسان قومه فالتقته بني بكر في مكان يدعى عقبة الريحان فلما اقترب العسكران قال الحارس بن عباد وكان من الفرسان الأجواد إلى جساس قائد القواد: هل تطيعني أيها الأمير فيما أقول وأشير؟ فقال: قل ما بدا لك فإني لا أخاف مقالك. قال: اعلم أن القوم مستخفين بقتالنا وذلك لضعفنا وقلة عدد رجالنا فقاتلهم بالنساء مع الرجال فتبلغ منهم القصد والآمال. فقال جساس وقد اعتراه الانذهال: ما معنى هذا المقال وكيف قتال النساء مع الرجال؟ قال: إنك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع النسوان اللواتي اتصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطي كل منهم مطرقة من الخشب وتصفهن خلف الرجال وقت الحرب والقتال فإن هذا المجال يزيد الأبطال نشاطاً في ساحة المجال فإذا خرج منكم أحد الناس يعرفنه من حلق رأسه فتسقينه الماء فينعشه وإذا مررن بعدوكم عرفنه فتقتله. فاستصوب جساس هذا الرأي واستحسنه وفي عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هذا

الحال فأجابوا أمره بالامتثال ولم يبقَ يومئذٍ من بكر أحد إلا حلق واستعد إلا رجلاً من الفرسان اسمه ربيعة بن مروان وكان ذميماً قصيراً وفارساً خطيراً فقال: يا قوم إني ذميم قصير وإذا حلقت رأسي أصير معيرة عند الكبير والصغير فدعوني من هذا يا سيدات العرب فأنا أبلغكم الأرب وأقتل خمسة فوارس من بني تغلب. فأجابوه إلى ما طلب.

(قال الراوي): ولما التقت العساكر بالعساكر وتضاربت السيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الآجام وألهبوهم بضرب السيوف على الهام فارتدت بنو بكر طالبة الانهزام فأشهر جساس في يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد والغمام وقال: يا ويلكم ارجعوا وقاتلوا بقوة وعزيمة فإن الموت أفضل من الهزيمة. فاجتمعت بنو بكر بعد الانقلاب إلى الحرب والقتال وضموا خيولهم في كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة وصاح الفند بن سهل وألقى بنفسه على القتال وهو ينخي الأبطال ويصيح على الرجال ففرق المواكب وأظهر بقتاله العجائب.

فلما رأى المهلهل أفعاله برز إليه وطلب قتاله فالتقاه الفند بقلب كالحديد وهجم عليه هجوم الصناديد وما زال في قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد إلى أن صار وقت الزوال فتوقفا عن الحرب والقتال وافترقت العساكر عن بعضها البعض ونزلت في جوانب تلك الأرض.

(قال الراوي): وكان ربيعة لم يحلق رأسه من دون بني بكر لقد قاتل قتالاً شديداً حتى أثقلته الجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فوقع طريحاً بين القتلى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بني بكر فوجدنه ذا

لمة طويلة فحسبنه من بني تغلب فضربنه بالمطارق حتى أوردنه موارد العطب فضربت به الأمثال وتحدثت به ألسنة الرجال.

(قال الراوي): ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفوارس ظهور الخيل واعتقلوا بالسيوف والنصول وتقدموا إلى ساحة الميدان بالضرب والطعان وكان المهلهل في الجحفل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من ذيل جبل فصاح وحمل على جيوش الأعداء كليث الآجام وضرب فيهم بالحسام وتبعه امرؤ القيس بن أبان وكان صنديد واشتد بين الفريقين القتال وكثر القيل والقال وتقطعت الأوصال وجرى الدم وسال وكان يوماً شديد الأهوال لم يسمع بمثله في الأجيال كثر فيه القتال والجراح وتمددت الفرسان على وجه البطاح وارتجت الأرض من قعقعة السلاح وصهيل الخيول وهول الكفاح وكان الفند قد حمل مواكب المهلهل وقاتل حتى استقتل وفعلت فرسانه مثلما فعل وبذل جساس في ذلك اليوم غاية الجهد وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الأسود واشتد على المهلهل القتال وأحاطت به الأعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل ويمانع وينصح رجاله على الثبات ويدافع حتى جرح في ثلاثة مواضع.

فلما زادت عليه الحال وازدحمت من حوله الرجال تأخر عن ساحة المجال خوفاً من الهلاك والوبال وانكسرت بنو تغلب في ذلك النهار أشد انكسار وتفرقت في البراري والقفار واستظهرت بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت منها جماعة من الأمراء والأعيان وصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان زينة الشجعان امرؤ القيس بن أبان وكان من

الأعيان صيته محمود مشكور وهو غير امرؤ القيس الشاعر المشهور فبكى المهلهل عليه وكان يحبه ويميل إليه ورجعت بنو بكر إلى الديار وهي بغاية الفرح والاستبشار على ذلك الفعال.

(قال الراوي): أما المهلهل فقد زاد حنقه على بني بكر وبات تلك الليلة على مقالي الجمر ثم جمع الفرسان والأبطال وتجهز للحرب والقتال فالتقته بنو بكر بقلوب كالجبال وجرت بينهم وقائع وأهوال لم يسمع بمثلها في سالف الأجيال واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة أيام وكان المهلهل قد انتصر في أكثر الوقائع جماعة كثيرة من فرسان المعامع ولما كثر بين الفريقين القتل واتفقوا على توقيف الحرب مدة شهرين فافترقت الفوارس عن بعضها وانزاحت كل فرقة بأرضها.

(قال الراوي): ولما قتل كليب كما تقدم الكلام كانت أمه الجليلة حاملة بهذا الغلام فلما طردها الزير إلى بيت أبيها وسكنت عند جساس أخيها فولدت غلاماً فسمته الهجرس ولقبوه الناس بالجرو فكانت مع أخواله بني مرة وأولادهم وكان خاله يحسن ويشفق عليه وكان الغلام قد أحب خاله الأمير جساس دون باقي الناس فلا يدعوه إلا أباً ونشأ الغلام ذا عقب وأدب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته ونزاهته وقوته وشجاعته فكان يركب ظهور الخيل ويتعلم عليها الفروسية في النهار والليل فبرع واشتهر وعلى شيبان القبيلة افتخر فلا بلغ عمره خمسة عشر زاد شهرة وارتفع مقاماً فرآه جساس في بعض الأيام وهو كأنه ليث الآجام والشر طائر من عينيه ولا يقدر أحد عليه فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش وكان كثيراً ما يتأمل في أمره ويخاف من سطوته وشره لأنه قتل أباه بالأمس وتركه يتيماً طول الدهر.

(قال الراوي): واتفق ذات يوم أن الجرو ركب في جماعة من الشبان وأخذوا يتعاطون بالجريد في الميدان وكان من جملة الغلمان عجيب ابن الأمير جساس وكان شديد البأس فطعن عجيب الجرو طعنة فمال عنها فراحت خائبة ثم إن الجرو تقدم نحو عجيب وطعنه بجريدة أصابته فألقته عن ظهر الجواد إلى الأرض فنهض غضباناً فشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال: أهكذا تفعل يا ابن اللئام بأبناء السادات والكرام؟ وأشار يهدد بهذا الشعر:

يقول عجيب من قلب موجع ألا يا رفقتي حالي عجيب
ضربني الجرو منه جريدة فأرماني وصيرني كئيب
ولم يعلم بأني خير ماجد ولد جساس قوم مستهيب
لولا عمتي لقطعت رأسه وأطرحه على الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الأعادي ولا ضد الكلاب إلا القصيب
دعوه يروح عنا لا يماطل ويذهب سرعة قبل المغيب

(قال الراوي): فلما فرغ عجيب من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه أجابه على شعره يقول:

يقول الجرو اسمع يا ابن خالي كلامه ليس يسمعه أديب
تقول اليوم تقتلني بسيفك وتتركني على الغبرا قليب
إذا أبصرتني يوماً فريداً فقتلتني بسيفك يا عجيب
فانزل عن جوادك يا ابن خالي وافعل ما تريده عن قريب
وافعل ما تريده اليوم فينا فإني لا أخافك يا عجيب

(قال الراوي): فلما فرغ الجرو من كلامه وإذا بسلطان أخو جساس أقبل عليهما في ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن أخيه جساس فلما

علم بواقعة الحال اغتاظ غيظاً شديداً وشتم الجرو وقال: والله لولا كرامة أمك لقطعت رأسك وأخمدت أنفاسك. فقال: يا خال ها أنا بين يديك فافعل ما تريد. ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد موجوع وسار إلى عند أمه وأعلمها بما جرى وكان طلب منها الرحيل من ذلك الأوطان فتكدرت أمه وأجابته إلى ذلك الشان ثم إنهما صبرا حتى أظلم الليل فتركا المضارب والخيام وسارا تحت جنح الظلام في جماعة من العبيد والخدام وجدا في قطع البراري والآكام مسافة عشرة أيام واتفق في اليوم الحادي عشر أنهما التقيا بشيخ في ذلك البر الأقفر وهو يقطع البر الفسيح على فرس تسابق الريح وكان بمعيته عشرة أبطال من صناديد الرجال وكان قد خرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع إلى الأوطان فتقدم الجرو إليه وسلم عليه فرد الشيخ سلامه وقال له: أيها الفتى الماجد من أين أتيت وإلى أين قاصد؟ فقال: طردني أهلي وربيت يتيم وأنا طالب إنسان كريم حتى ألتجئ إليه وعنده أقيم. فقال الشيخ: إذا كان الأمر كما تقول فشرفني إلى أطلالي فأنا أفديك بروحي ومالي.

وأشار إليه يقول:

يقول الأمير منجد من قصيد ... ألا يا قاصداً نيل المآرب

فشرف منزلي وأمر عبيدك ... يرون الأعز والجنائب

بكم قد حلت البركة علينا ... وزال عنا الشر والمتاعب

فمثلي ما تلاقوا أين سرتم ... وعندي تبلغوا كل المطالب

أنا منجد فمن نسل الأكارم ... أبي وائل وما فينا معاقب

ألوف ألوف تخدمني وتخضع ... لأمري في المشارق والمغارب

وأنت بقيت بعد اليوم ابني ... ولست اليوم في قولي بكاذب

(قال الراوي): وكان هذا الشيخ اسمه منجد بن الأمير وائل وهو خال كليب والزير البطل الحلاحل وكنا قد ذكرنا عنه في أول الكلام بأنه بعد أن قتل ربيعة أبو كليب استخدم مع إخوته الثلاثة عند التبع في بلاد الشام ولما قتل التبع ولى وهرب وسكن في آخر بلاد العرب خوفاً من كليب أن يقتله كما قتل إخوته لأنه كان يبغضه دون أهله وعشيرته. فلما فرغ منجد من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع إلى عند أمه على الأثر وأعلمها بما جرى وكان، ثم إنهم ساروا معه إلى الأوطان ونصبوا المضارب والخيام فأكرمهم منجد غاية الإكرام وأنزلهم أعز مقام وكان لمنجد المذكور عشرة أولاد من الذكور كأنهم البدور فتلقوا الجرو وأحبوه وكانوا لا يفارقوه وكانت أمه الجليلة قد عرفت الأمير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الأمر عن زيد وعمر خوفاً من العواقب وطول النوائب فاجتمعت بابنها الجرو وقالت: إذا سألك أحد عن اسمك فقل اسمي هجرس ولا تقول الجرو. فقال: إن الاسمين واحد فما هو مرادك بذلك. فقالت: وإن يكون الهجرس كلب الصياد فإنه اصلح من الجرو ابن الكلب وأنت أمير وأبوك كان من الفرسان المشاهير. ومن ذلك اليوم تسمى الهجرس وغلب عليه هذا اللقب بين العرب وكانت أمه في قلق عظيم خوفاً عليه فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيدها وكان اسمه صباح وأشارت تقول من فؤاد متبول:

تقول الجليلة بدمع سجام ... أيا صبح اسمع الكلام
فهذا الشيخ الذي تراه ... مكيد الأعادي بضرب الحسام
يسمى منجد صميدع عنيد ... ولد وائل وافي الزمام
فهو أمير وابن أمير وحوله ... عساكر كثيرة كفيض الغمام

فهذا حال كليب الأمير مع سالم الزير قوم همام
فهو خالهم قد عرفته سريع مكيد الأعادي بضرب الحسام
وهو خال زوجي لكن عدو كيف العمل الآن صرنا نضام
وأصل العداوة كليب الأمير قتل إخوته في دمشق الشام
قتل اليمامة وأخذ ثأر أبوها وأهلك أخوه منجد وشام
ونحن الآن نزلنا عليه عرفته وقد اعتراني سقام
إني أخاف على ابني حقيق يهينه ويدعي دمه سجام
عدوك إياك تركن إليه ولو إنه سقاك المدام

(قال الراوي): فلما فرغت من شعرها ونظامها فهم صباح فحوى كلامها قال أين نتوجه الآن وقد صار لنا مدة من الزمان والصواب أن نكتم أمرنا على كل إنسان فبينما يفرجها علينا الرحمن الرحيم. واستمروا مدة طويلة في تلك القبيلة وهم في عز وإقبال وأرغد عيش وأحسن حال إلى أن كان في بعض الأيام أغار على الأمير منجد بعض الملوك العربان في ثمانين ألف عنان فالتقاه منجد بعسكر جرار فانكسر عدة مرات حتى آل أمره إلى الدمار.

فلما شاهد الجرو تلك الأحوال وما وقع بمنجد من الأهوال برز إلى ساحة المجال وقاتل الشجعان والأبطال وأظهر الغرائب والعجائب ففرق الصفوف والمواكب وكسر ذلك العسكر وفعل فعالاً تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقمر. وعند رجوعه من معركة القتال بالنصر والإقبال شكره منجد على تلك الفعال وقال له: مثلك تكون الرجال فوالله لقد حميت الحريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكراً جميلاً على طول الدوام. عند وصولهما سراية الأحكام وجلوسهما في الديوان قال منجد

بحضور السادات والأعيان مثلك تكون الفرسان فأعلمني عن حسبك ونسبك ومن يكون قومك. فلما سمع الجرو فحوى كلامه أجابه بهذا القصيد:

أيا فخر ماجد في الرجال فاسمع يا ملك فحوى كلامي
أنا اسمي اليتيم يا مسمى ولا أعرف أبي ولا أخوالي
وإني قد سألت أمي مراراً فتسكت لا ترد على سؤالي
تقول أبوك شاليش ابن مرة قتله الزير في يوم النزال
فأطلب من إله العرش ربي لأخذ الثأر منه بالقتال

(قال الراوي): فلما فرغ الهجرس من كلامه زاد منجد في احترامه ونهض على الأقدام وأعتقه أمام السادات الكرام وقال له: أنت من بني مرة أصحاب الشجاعة والقدرة فعربك من عربي ونسبك من نسبي فوالله ما ضاع نظري فيك فأطلب من الله أن يحفظك ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك. من ذلك الوقت زاد في إكرامه ورفع مقامه على جميع أقوامه وأقامه ملكاً على تلك الديار وصار في مزيد الوقار والاعتبار عند الكبار والصغار وكان لمنجد بنت بديعة الجمال متصفة بالآداب والكمال كأنها هلال ذات عقل ثاقب ورأي صائب لا يوجد مثلها في العرب والأعاجم اسمها بدر باسم فزوجه إياها وتمتع الجرو بحسنها وأقام في أرغد عيش وأحسن حال وهو يحكم على تلك الأطلال وقد أحبته جميع الرجال.

(قال الراوي): هذا ما كان من الهجرس وأمه الجليلة وما جرى لهما في تلك القبيلة، وأما جساس فإنه بعد رحيل أخته من الديار زادت به الأكدار وكان كثيراً ما يتذكرها في الليل والنهار فاتفق في بعض الأيام

بينما هو جالس في الخيام دخل عليه بعض الشعراء فسلم عليه وعلى باقي الأمراء وأخذ يمدحه بهذا الشعر والنظام على ما جرت به العادة في تلك الأيام:

قال جابر في بيوت صادق ... أنت يا جساس رب المكرمات
سمعت بصيتك أنا يا ذا الأمير ... في الكرم والجود يا فخر الذوات
أنت ملك البلاد جميعها ... حاكماً في الأرض من كل الجهات
قاتل الضد في يوم الوغى ... مكرم للضيف سنة المحملات
أنت يا جساس ملك البلاد ... مع إخوتك وشقايقك السيدات
لولاكم ما كنت جئت لأرضكم ... ما كنت فارقت العيال مع البنات
أولاد أختي يا ملك أولادها ... وزوج أختي يا ملك ذا العام مات
أولاد أختي يا ملك سبعة ذكور ... عند أولادي وأهلي تبات
جور هذا الدهر في الدنيا عجيب ... كم له في كل يوم تقلبات

(قال الراوي): فلما فرغ جابر من شعره ونظامه وفهم جساس فحوى كلامه أمر له بألف دينار واعتبره غاية الاعتبار ثم التفت إليه أخوه سلطان وقال له أمام السادات والأعيان: أسمعت كلام هذا الشاعر الذي يدور في القبائل والعشائر ويمدح السادات والأكابر أملاً في الكسب وبلوغ المآرب كيف أنه ذكر أختك في شعره ولم ينسها طول دهره فكيف نحن نكون سلاطين الزمان وملوك العصر والأوان ونترك أختنا أن تغضب منا وتبعد ولا نعلم إلى أين ذهبت وأي قبيلة طلبت؟ فماذا تقول عنا دول الممالك إذا سمعت عنا ذلك؟ فمن الواجب أن نقتفي أخبارها الآن ونعيدها معزوزة إلى الأوطان. ثم إنه بكى أمام جلسائه وبكت إخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل واستعظم ذلك العمل ثم التفت جساس

إلى ذلك الشاعر وقال له: أنت تطوف في حلل العرب وتمدح الملوك وأصحاب الرتب فأريد أن تستقصي لي عن أخبار الجرو وأختي الجليلة وتعلمني إلى أي حلة قصدوا عن اسم القبيلة. فإن أتيتني بصحة الخبر بلغتك القصد والوطر. فأجابه الشاعر وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصي عنها الأخبار من الكبار والصغار حتى سمع بخبرهما ووقف على حقيقة أمرهما فقصدهما إلى ذلك المكان واجتمع بهما في الصيوان وحدثهما بما سمع في حقهما من جساس وسلطان ثم أشار يمدح الجرو ويقول وهو فرحان على بلوغ القصد:

يقول جابر من قلب حزين ... فدمعي سال من وسط الأماق
أدور على القبائل والعشائر ... لأحظى بالمكاسب والنياق
فأصغِ يا أمير إلى كلامي ... فأنت أجل فرسان السباق
فصيتك شاع في كل القبائل ... فمن يمنِ إلى أرض العراق
وما لك في البرايا من شبيه ... ونجمك فاق سام المجد راق
سألت الله أن يحفظ جيالك ... على طول المدى والدهر باق
رحنا من حماة لعند خالك ... ملك جساس سلطان الآفاق
فأهدانا وقام أنعم علينا ... وقلبه من بعادك باحتراق
وأرسلني لكشف أين أنتم ... ليحظى فيكم من بعد الفراق

(قال الراوي): وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهي خلف الحجاب والستر فما هان عليها أن تسمع بذكر إخوتها الذين كانوا سبباً لغربتها وفرقتها من حلها فأمرت كبير العبيد أن يوقف عن إتمام القصيد وأن يكتم خبرهما عن هذا وذلك خوفاً من الفضيحة والإنهاك ثم أمرت له بألف دينار وأعطاه الجرو مثل ذلك المقدار ففرح الشاعر واستبشر

ورجع على الأثر وأعلم جساس بذلك الخبر فأرسل في الحال أخوه سلطان في جماعة من الأبطال ليأتوا بأخته الجليلة وابنها الجرو من تلك الأطلال. فلما اقترب سلطان إلى تلك الأوطان أرسل بعض الفرسان ليعلم منجد بقدومه إلى أوطانه فخرج في الحال في جماعة من فرسانه فالتقاه أحسن ملتقى لأنهم كانوا أقارب أصدقاء وأنزله في سراية الأحكام وذبح له النوق والأغنام وأكرمه غاية الإكرام، وفي ثاني الأيام اجتمع سلطان بأخته الجليلة وولدها الجرو واعتذر لهما بما فرط منه وطلب منهما الرجوع إلى الديار وشدد عليهما في ذلك غاية التشديد فأجابه إلى ما طلب وأعلم الجرو الأمير منجد بأنه يريد الرجوع إلى أهله وعشيرته مع أمه وزوجته ومن يلوذ به من جماعته لأن نفسه اشتاقت إلى الوطن. فقال منجد: والله يا أمير يعز علينا فراقك ولا زالت أرواحنا في كل وقت تشتاقك ولكننا لا نقدر أن نمنعك عن أهلك وأصحابك وبني عمك وأحبابك ثم أعطاه مائة ناقة محملة نفائس الأقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعادن والجواهر ومائة عبد ومائة جارية وأركب ابنته زوجة الهجرس على هودج كبير وسار لوداعهم مسافة نصف يوم ثم رجع إلى الديار وسار الهجرس مع أمه وزوجته يقطعون القفر حتى وصلوا إلى منازل بني مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة وأمر بذبح الذبائح وإطعام الغادي والرائح وأشار إلى الجرو يقول:

لما قال الفتى جساس صادق ... أيا مرحباً بك يا ابن أختي

ففيكم حلت البركة علينا ... وضاء الحي من قربك إلينا

وأمك يا فتى عيني وروحي ... وعمرك يا جليلة ما فرحت

فإنك غداً كالسبع الكاسر ... فإن الجرو للأعداء كاسر

بيوت الحرب والأهوال كاسر إله العرش أرجعه ظافر
فلا تعتب على سلطان خالك ولا قوله سيخطر قط ببالك
فلا ابني ولا نحن مثالك أنا سأحكمك من فوق تختي
أنا أبكي على المرحوم أبيك قتله الزير في ربعك وحيك
فقم اركب يا روح خيلك وأخذ من المهلهل أي مأخذ
سألتك الله أن تأخذ بثأرك بقتله تكشف عنك عارك
مرادي تقتله وتأخذ بثأرك وتحرقه بنارك يا ابن أختي

(قال الراوي): فلما فرغ جساس من شعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقال له: كن مطمئن الخاطر يا خال. هذا ما كان من الجرو وجساس، وأما الزير الفارس الدعاس فإنه بينما كان راقد ذات ليلة إذ رأى في منامه ولذيذ أحلامه أخاه الأمير كليب وهو يعاتبه بهذه الأبيات على أخذ الثأر وكشف العار ويقول وعمر السامعين يطول:

تنام الليل كله يا مهلهل وثاري ما قدرت على وفاه
وعظمي ذاب حتى صار كحلاً وجساس بن مرة في الحياة

فأجابه الزير يقول:

أمير كليب ما قصرت يوماً بأخذ الثأر من قوم البغاة
فقم اسأل بناتك يا حبيبي على طعني وضربي بالعداة

(قال الراوي): فاستيقظت بنات كليب من المنام وأيقظن عمهن بهذا الشعر والنظام:

يقولون اليتامى يا مهلهل أتانا كليب يستنجد أخاه
كليب قام من وسط أو المقابر وصار كليب في وسط الحياه

(قال الراوي): كان الزير قد استيقظ من منامه فرأى البنات حواليه فقال لهن: رأيت أباكن في المنام ثم حدثهن بما سمعه ورآه بالكمال والتمام فبكين بكاءً شديداً فقال الزير: إن هذا المنام يدل على عجب وحادث يقع عن قريب. فاستدعى بعض الرمالين إليه وقص ذلك المنام عليه فضرب الرمال الرمل ورسم الأشكال وولد البنات من الأمهات حتى عرف حقيقة ذلك الخبر فقال له: البشرى يا فارس الصدام فإن جساساً سوف يقتل من بعد أيام وذلك من يد شخص يظهر من لحمك ودمك وأشار يقول:

يقول بشير اسمع يا مهلهل	أيا سالم فابشر زال همك
أتاك النصر من رب البرايا	إله العرش بالخيرات عمك
وقد ظهر رسول الرمل عندي	سيظهر شخص من لحمك ودمك
فيقتل في الوغا جساس حالاً	وأنت ترجه ويزول همك
وتهلك بعده أولاد مرة	وتسقيهم جميعاً كأس سمك

(قال الراوي): فلما سمع المهلهل هذا الشعر من الرمال فرح واستبشر وقال له: إن تمّ ذلك الكلام أبشر مني ببلوغ المرام. ثم إنه أحسن إليه ووعده بكل حسن ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب المهلهل إلى الحرب والكفاح وتبعه الأبطال والفرسان وركب أيضاً الأمير جساس بالرجال والشجعان واقتتلوا طول ذلك النهار وقتل المهلهل منهم عدد كثير المقدار وما زالوا في أشد القتال إلى أن دقوا طبول الانفصال فافترقت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة في أرضها وأما الهجرس فإنه لم يركب مع جساس في ذلك اليوم فاجتمع جساس بأخته الجليلة في المساء وقال لها: إن ابنك لم يقاتل معنا ولا نعلم ما

هو السبب فاسأليه وأعلميني بما يقول. فسألته أمه عن عدم خروجه إلى الحرب فقال لها: اعلمي يا أماه أنه لا يلقاني قتال إلى الزير سوى حصان خالي جساس الأخرج، إن وهبني إياه أنا أعطيه عوضه رأس المهلهل فإن قبل بهذا الطلب بلغته غاية الأرب. فرجعت الجليلة على الأثر وأعلمت أخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له: إن قتلت هذا الشيطان تكون علينا ملك ونحن لك غلماناً وأعوان. ففرح الجرو بذلك وضمن لجساس قتل الزير أمام الفرسان والقواد، ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركب الجرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور وكان الزير قد ركب وطلب براز الفرسان وقال: أين جساس الجبان فليبرز إلى الميدان. فبرز الجرو إليه وهجم عيه وأشار يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الهجرس يا مهلهل ... إن عزرائيل أقبل

أين تعدي اليوم مني ... سوف تلقاني وتقتل

لا تحسبني بظنك ... إني كمن قد جاك

(قال الراوي): فلما فرغ الهجرس من شعره حمل عليه وكان المهلهل قد مال قلبه إليه وتحركت جميع أعضائه بإذن الله وهذا الهجرس قد قصد قتله وقلعانه ليوفي إلى جساس ضمانه وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختياره ولا كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره، وما زالا على تلك الحال وهما في عراك وقتال إلى أن دقت طبول الانفصال وعاد العسكران عن ساحة المجال ورجع المهلهل إلى الأطلال واجتمع بنات أخيه كليب وأعلمهن بحديث الغلام وما جرى بينهما في معركة الصدام وكيف أنه أشبه الناس بأبيهم كليب في الصورة والقتال ثم قال

لليمامة أعلميني هل كانت أمك الجليلة حامل لما ذهبت إلى بيت أبيها؟ فقالت: نعم يا عمي كان لها نحو شهرين ولكن ما هو معنى هذا السؤال؟ فأنشد وقال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل مريع الخيل إن تصدت إلينا
يمامة اسمعي مني كلامي أيا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتى أقاتل آل مرة أجمعينا
فقارزني غلام غريب منهم له عزم كما الصخر المتينا
كمثل أباكم وجهاً وحرباً فذكرني ليالي الماضيينا
فقد قاتلته في كل لطف وهو يطعن طعان القاتلينا
فحملاته وطعناته قوية تقد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهى من شعره أجابته اليمامة تقول:

ألا يا عم اسمع ما أقوله لتفهم سالم الخبر اليقينا
فأمي حاملة من يوم راحت وحق الإله رب العالمينا
ولست أدري أيش جابت أبنت أم غلام يا فطينا
ثلاث إشارات لي في كليب إشارات بعقلي راسخينا
ركب يوماً بقرب النوم مرة وقال أيا يمامة أنظرينا
من التفاح أعطاني ثلاثة وقال بذي الثلاثة تضربينا
فإنك سوف تحتاجي إليهم إذا ظهر لنا حقاً بنونا
ضربته بواحدة يا عم راحت بضرب رقابه راحت طحينا
وثاني واحدة في رمحه وثالثهم خطفها باليمينا
غداً أنزل وأضربه.ثلاثة كفل أبي أيا عمي الحنونا
يكون أخي إذا سوى نظره وإن خالف يكون غريب فينا

عسى الله يدركنا بلطفه وينصرنا إله العالمينا

(قال الراوي): فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع فحوى كلامها قال لها: فعل أبوكِ ذلك؟ قالت: قبل موته بشهرين عندما كنت على بير السباع وقد صممت الآن أن أرافقك إلى الميدان وأضربه بالتفاح في ساحة الكفاح وإن فعل كما فعل أبي يكون لا شك أخي وبه أبلغ أربي.

وفي ثاني الأيام ركب الزير للحرب والصدام وركبت معه اليمامة وقد أخذت معها ثلاثة تفاحات وكان الجرو قد ركب أيضاً بالأبطال فصال وجال وطلب الزير للحرب والقتال فبرزت إليه اليمامة بالعجل وقالت أنا أقاتلك اليوم دون المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ثم إن اليمامة أخذت تفاحة ولوحتها بيدها وضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطحنها طحناً ثم إنها ضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ثم أخذت الثالثة وقالت اللهم يا خالق الخلق امح الباطل واكشف الحق فأخذها بيده ووضعها في جيبه. فلما شاهدت الحال أيقنت أنه أخوها لا محالة فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت إليه وألقت بنفسها عليه وقالت: أهلاً وسهلاً يا أخي ابن أبي وأمي، فأنت والله ابن كليب دون شك ولا ريب وقد ربيت في دار العدا والحمد لله الذي عرفناك بعد طول المدى. فقال لها: أنا ابن شاليش أيتها السيدة الحرة وأمي هي الجليلة بنت الأمير مرة. فقالت: أنت ابن الأمير كليب ثم أنشدت تقول:

قالت يمامة من ضمايرها دمع العيون على الخدين هنان
اسمع أخي قصتي وافهم معانيها يا قاهر العدا في وسط ميدان

أبـوك خـانـه جـسـاس أيـا سـنـدي — بـطـعـنـة يـا عـظـيـم الـقـدر والـشـأن
شـالـيـش خـالـك كـل الـنـاس تـعـرفـه — أهـل الأعـارب قـاصـيـهـا ومـن دان
وعـمـك الـزيـر فـخـر الـنـاس كـلـهـم — وفـارس الـخـيـل مـن عـجـم وعـربـان
فـاسـأل لأمـك ثـم سـرك اكـتـمـه — وارجـع إلـيـنـا فـأنـت الـيـوم فـي أمـان

(قال الراوي): فلما فرغت اليمامة من شعرها تأكدت عنده تلك القضية، لان قلبه فقال لها سراً: لقد صدقت بقولك هذا فاذهبي الآن وعند الصباح أتبعكم إلى الأوطان، ثم توقفت عن القتال ورجع إلى عند أمه في الحال وأخبرها بذلك الشأن وأن تعلمه من هو أبوه من الفرسان وحلف لها بالإله الديان أنها إن كتمت عنه حقيقة الخبر قتلها وجعلها عبرة لمن اعتبر. فلما علمت أمه بأن الخبر قد اتصل إليه وأن الأمر ما عاد يخفى عليه أعلمته بالقصة من أولها إلى آخرها وأوقفته على باطنها وظاهرها وأشارت إليه تقول من فؤاد متبول:

الـجـلـيـلـة قـالـت أبـيـات — نـار قـلـبـي بـالـحـشـا زادت لـظـا
اسـتـمـع يـا ولـدي فـيـمـا أقـولـه — يـا ضـيـا عـيـنـي ويـا كـل الـمـنـى
أنـت روحـي افـتـهـم مـنـي الـكـلام — قـول صـادق لـيـس فـيـه مـن خـفـا
إن أبـوك كـلـيـب صـور الـمـحـصـنـات — قـاهـر الأبـطـال فـي يـوم الـوغـى
وإخـوتـه خـمـس أعـمـامـك جـمـيـع — كـلـهـم فـرسـان طـعـانـة قـنـا
أربـعـة مـن الـسـت يـا ابـنـي حـقـيـقـي — كـل واحـد سـبـع ربـي بـالـفـلا
مـنـهـم الـمـسـمـى أبـوك كـلـيـب كـان — والـفـتـى الـزيـر الـمـهـلـهـل يـا مـتـى
والـفـتـى الـمـسـمـى عـدي درعـان — هـذه الأربـعـة أتـوا مـنـهـا سـوا
ثـم سـت وأربـعـيـن خـلافـهـم — مـن الـجـواري والـسـراري والإمـا
كـلـهـم يـا أمـيـر أعـمـامـك لـهـم — كـل واحـد ألـف يـطـعـن بـالـوغـا

وأبوك كليب ساد على الجميع بالفروسية مع جود وسخا
جاء جساس خالك باق فيه وتركني بعده مثل الإما
وطردني عمك الزير بعده فرحت إلى أهلي دون الملا
قد كنت حامل فيك بعد أبيك فولدتك في تلك الحما
رحت سميتك على اسم الكلاب سرت كأنك سبع رابي بالفلا
وأنا والله من خوفي عليك قلت أخي شاليش إنه لك أبا
وأنا أعلمتك افعل ما تريد ما بقيت أخاف يا فخر الملا

(قال الراوي): فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاءً شديداً ولام أمه على كتمان الأمر ثم إنه صبر إلى الليل فركب وسار بالعجل إلى عند المهلهل وصحبه العبد أبو شهوان الذي كان أرسله إليه عمه فارس الفرسان وفي أثناء الطريق أراه العبد قصر أبيه وقبره المصفح بالذهب فلما رآه بكى وانتحب وعند وصوله إلى عند عمه دخل عليه وقبل يديه وعينيه واجتمعت جميع شقايقه ومن يلوذ به من أهله وأقاربه فوقعوا عليه وترحبوا به وكان الزير أفرح الخلق به ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس قال الجرو: الحمد لله رب الكائنات الذي جمع شملنا بعد الشتات فوالله رب موسى وإبراهيم لا بد لي من قتل جساس وأجعله مثلاً بين الناس لأنه فجعني بأبي تاجي وفخري وتركني يتيماً طول دهري. فقال له: لا بد من قتله على رؤوس الأشهاد وأنت تكون الحاكم بعد أبيك على هذه البلاد ثم أنشد وقال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل صفا عيشي وقتي ما تعكر
أتاني السعد من رب البرايا وزال النحس لما السعد أقبل
فقبل ظهوره كنا حزانا نقضي الليل في قلق ونسهر

على فقد الفتى الماجد كليباً ثوى غدراً له جساس فنظر
وفي دمه كتب بالبلاطة وصايا عشر أبيات أو أكثر
يوصيني بقوله لا تصالح فسالم أنت إن صالحت تخسر
واطرد الجليلة من حمانا عدوة كعبها ما كان أخضر
طردناها وهي بالجرو حامل ومن يقدر على رد المقدر
أنا فيهم فتكت بحد سيفي وأنت القصد منهم بالمشهد
وإني ما بكيت على كليب أخذت ثأره بالسيف مجهر
فابكي حيث ما خلف ذكوراً بنات الكل ماله طفل يذكر
ولما خالقي أنعم علينا وجانا الجرو كالسبع الغضنفر
صفا عيشي وقد نلت المقاصد وزال النحس عنا ثم أدبر
وبعد يا ابني اسمع كلامي أنا عمك وأنت الليث قسور
فقم اجلس على كرسي أبوك وفي أحوال أخواتك تبصر

(قال الراوي): فلما فرغ الزير من الشعر والنظام قال الجرو أطال الله بقاك ونصرك على جميع حسادك وأعداك وبلغت قصدك ومناك، إنني والله يا عم في قلق وغم فلا تزول أحزاني وأنال أربي حتى آخذ بثأر أبي وأقطع رأس جساس وأجعله مثلاً بين الناس. فشكره جميع أهله وأعمامه وبعد ذلك قال له الزير: ما هو الرأي عندك يا ابن أخي؟ فقال: الرأي عندي أني أغار عليكم نهار غد وآخذ نوقكم وجمالكم إلى جساس وأقول له بأني أتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغداً آتي إليك برأس الزير ثم لأحاربك وتكون أنت واضع قربة من الدم تحت جانبك فأطعنك بالرمح فخذه تحت إبطك وألقي نفسك على الأرض فتنشق القربة ويهرق الدم وأنا أصيح على جساس وأقول له: قد قتلت عدوك يا

خال انزل إليه واقطع رأسه لقد زال الكدر وبلغنا اليوم الوطر، وعندما يأتي إليك تقوم إليه بالعجل وتعدمه الحياة لأنه لم يعلم بقدومي عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتتخلص من هذه الورطة الوبيلة. فاستصوب الزير رأيه. ثم إنه ودعهم وسار وحده إلى ديار بني مرة وعند الصباح ركب الجرو في جماعةٍ من الفرسان وساقُ مواشي بني قيس من الرعيان باتفاق الأمير مهلهل ليث الميدان فخرج الأمير جساس وسادات من بني مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة.

(قال الراوي): فاتفق في تلك الليلة بأن جساس رأى حلماً غريباً وهو أنه أبصر ذاته بأنه كان قد ربى عنده جرو وذهب وكان يوده ويحبه فلما انتهى وترعرع وتصاحب مع سبع كاسر فألفه إلى أن كان في بعض الأيام أغار السبع على مواشي بني مرة وهجم على نسائهم وأولادهم وجعل يفترس كبارهم وصغارهم وكان الذئب يساعده عليهم فاغتاظ جساس من فعال الأسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله وإعدامه فوثب عليه الذئب من ورائه ونهشه فألقاه صريعاً على الأرض، ففاق جساس مرعوباً من هذا الحلم فنهض في الحال وسار إلى الديوان وجمع إخوته وباقي السادات والأعيان وأعلمهم بذلك المنام. فقالوا: هذه أضغاث أحلام وما زالوا يهونون عليه حتى راق وزال عنه القلق والكدر، ولما أصبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الأمير جساس وهو في قلق ووسواس وكان الجرو قد أوعد بهلاك القوم وقتل المهلهل في ذلك اليوم فلما التقى الفريقان برز الجرو إلى ساحة الميدان فبرز إليه المهلهل فالتقاه الجرو وصال وجال وطعنه بالرمح طعنة

كاذبة فسحبها المهلهل من تحت إبطه فراحت خائبة وألقى بنفسه على الأرض من فوق ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم أنه قد مات وحلت به الآفات. فعند ذلك صاح الجرو الله أكبر على من طغى وتجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذي أهلك العباد. ثم إنه صاح على جساس وقال له: انزل يا خال واقطع رأس عدوك فقد قتلته وكفيتك شره. فلما رآه يتخبط بدمه نزل عن ظهر القميرة وهو يظن أنه قد بلغ غاية مراده ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه من لحيته وهجم الجرو أيضاً عليه ووضع الرمح بين كتفيه فعند ذلك علم جساس أنها حيلة قد تمت عليه وتأكد عنده صحة ذلك المنام فأخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام:

قال جساس الذي شاهد وفاة — يا سياج البيض في طعن القنا
إنني بك يا ابن أختي مستجير — فأجرني يا ابن أختي من القنا

فأجابه الجرو بهذه الأبيات:

أيا خال اقصر عن ملامك — دنى أجلك وقد وافى حمامك
تقول أجرني يا ابن أختي — ألا يا جرو أعطينا زمانك
قتلت كليب ظلماً وعدواناً — تظنوا بأنني أسمع كلامك
وبعد كليب أصبحت حاكم — تسامى في الملا أيضاً كلامك
طغيت وجرت في حكمك علينا — فأذني لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا أن نجيرك — فهذا ما تشوفه في منامك

(قال الراوي): فلما فرغ الجرو من كلامه جعل جساس يتوسل إليه بأن يعفو عنه وقال: بالله عليك أن تصفح عني فإن الذي مضى قد مضى

وهل إذا قتلتني يعيش كليب ويقوم، فاتركني لوجه الله الواحد القيوم.
فقال الجرو: لا بد من قتلك كما قتلت أبي حتى أكون قد بلغت أربي.
فلما طال بينهما الخطاب قال لهما الزير: أراكما قد أطلتما الكلام والعتاب فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح في صدره فخرج يلمع من ظهره وتقدم إليه الزير بالسيف على رأسه فقطعه ثم وضع فمه على عنقه وجعل يمصه حتى شرب جميع دمه وكان الجرو ينهش في لحمه حتى بلغ مراده وشفى فؤاده وبعد ذلك أعطى الرأس إلى الجرو ليأخذه إلى شقايقه فسلمه الجرو إلى بعض عبيده وهجم مع قومه في باقي الأبطال على جموع بني مرة في الحال وأذاقوهم الوبال وبلغوا منهم الآمال وكانت بنو مرة لما علمت بقتل جساس أيقنت بالموت الأحمر لأنه كان القائد الأكبر وعليه الاعتماد في الحرب والطراد فولّت الأدبار وطلبت الهزيمة والفرار وكان المهلهل قد قتل منهم في ذلك النهار خلقاً كثيراً بهذا المقدار فمنهم أمراء وقواد وسادات أمجاد وأما الذين سلموا منهم فإنهم طلبوا الزمام من الزير والجرو فأجارهم وعفوا عنهم بشرط أن يكونوا مثل العبيد لا ينقلون سلاح ولا يحضرون حرباً ولا كفاح ولا يوقدون ناراً لا ليلاً ولا نهاراً ولا يعرف لهم قبر ميت في جوار لا في مقبرة ولا في دار إلا مشتتين في البراري والقفار يقضوا حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمار وإن غابت نساؤهم طوال النهار لا يسألها أين كانت بل يسألها أيش جابت وليس لهم صفة سوى الرقص والخلاعة فقبلوا على هذا الشرط بكل رضا وقناعة. وبعد هذه الشروط تسلطن الجرو على كل القبائل نظير أبيه وطاعته العباد وشاع ذكره في البلاد وفرحت بنات كليب كل الفرح وزال عنهم الغم والترح وخلعن عنهن ثياب

السواد وكان ذلك النهار عندهم من أعظم الأعياد وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان فسمى الأولى تغلب والثاني مالك ولما بلغا سن الرجولة زوجهما بنتين شقيقتين وهما بنات الأمير هلال حاكم حماة وزوج أخته اليمامة للأمير مفلح ابن الأمير مذكور. وهذا ما جرى بينهم وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحروب بين قبائل العرب وكان أفرح الناس الأمير مهلهل وكان الجرو قد عرض عليه الزواج فامتنع وكان منعكفاً على الجلوس في الخيام وأكل الطعام وشرب المدام وأقام له عشرين عبداً في رسم خدمته وكان يرقد وينام وهو لابس آلة الحرب والصدام لأنه كان قد اعتاد عليه مدة الحروب والشهور التي استمرت أربعين سنة وكسور كما في التاريخ المذكور. وهذا ما كان من أمر المهلهل في تلك الأيام وسوف يقع له حديث وكلام. وأما الجرو فإنه قد زوج أربعة من شقائقه إلى جماعة من الأمراء وصنع لهن ولائم وأفراح مدة طويلة وأما ولداه مالك وتغلب فإنهما بقيا مدة خمس عشرة سنة ولم يرزقا بأولاد من بنات الأمير هلال المذكور وبعد نهاية المدة طلبت نساؤهما زيارة أهلهما في حماة فطلب أزواجهما من أبيهما الجرو أن يأذن لهما بذلك فأمر لهما فساروا مع نسائهما إلى تلك الأطراف ولما بلغ الأمير هلال بقدوم أصهاره بنسائهما خرج والتقاهم مع ولده الأمير مفلح وخرجت معهما اليمامة زوجة الأمير مفلح المذكورة وخرج أيضاً أكابر المدينة فالتقوهم بالترحاب والإكرام وأنزلوهم في أحسن مقام وقاموا في تلك الأوطان مدة من الزمان وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح ولما صمم الأمير مالك وتغلب على الرجوع إلى الأطلال مات

الأمير مفلح مع أبيه الأمير هلال فأقاما يحكمان في تلك الديار وانقادت لأمرهما أهل تلك البلاد وكانا محبوبين من جميع العباد وكانت اليمامة بعد وفاة بعلها ذهبت إلى عند أهلها.

(قال الراوي): فاتفق ذات يوم الأمير مالك قال لأخيه تغلب: اعلم يا أخي إنه قد مضى علينا مدة من الزمان ولم نرزق بولد ذكر حتى يبقى لنا ذكر يذكر بين البشر فدعنا نتزوج الآن على نسائنا فلعل الله يرزقنا بأولاد وإلا انقطع نسلنا من بين العباد. فقال تغلب: من الصواب أن نصلي إلى الله في هذه الليلة ونتضرع إليه أن يرزقنا أولاداً من نسائنا لأنه على كل شيء قدير. فامتثل أخوه رأيه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب وأشار تغلب يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الفتى تغلب على ما جرى	بدمع جرى فوق الخدود نهور
أقول وفي قلبي من البين لوعة	وبي حسرات في الفؤاد تثور
لفراق أبينا الجرو والزير عمنا	عليهم قلبي والحشا مكسور
يا رب يا رحمن يا سامع الدعا	عليك اتكالنا يا جابر المكسور
سألناك ربي بالخليل وابنه	بحق الذي إليه العبيد تزور
فيا رب يا رحمن اجبر قلوبنا	بجاه عيسى وموسى الفاضل المشهور
بجاه داود مع يحيى مع الخضر	وبالعرش والكرسي وبحر النور
ترزقنا بولدين يحيوا ذكرنا	أيا من ترزق كل وحش كسور

(قال الراوي): وكان الأمير تغلب ينشد هذه الأبيات وأخوه مالك يقول آمين يا رب العالمين، فاستجاب الله دعاهما ولم يخيب شكواهما فما مضت مدة يسيرة وبرهة قصيرة حتى حبلت نساؤهما ولما تمت

أيامهما ولدن الاثنان في يوم واحد فولدت زوجة مالك بنتاً وزوجة تغلب ولداً ذكراً. فقامت في الحي الأفراح والمسرات وكان جناب الأميرين في الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشرهما بذلك وكان اسمه مسرور فلما أقبل إليهما العبد قالا له: علامك يا مسرور أبشير أم نذير؟ فقال: إنني بشير وأشار إليهما بهذه الأبيات:

قال الداعي المسمى سرور ... يا سادتي أتيتكم قاصد بشير
يا أمير مالك أتاك بنت كالقمر ... ووجهها كالشمس والبدر المنير
وأنت يا تغلب أتاك غلام ... يفرح القلب المتيم يا أمير
أتيت إليكم حالاً بلا بطء ... فوق حمرا كأنها طير يطير
أريد منكم يا كرام بشارتي ... اجبروا بالله قلبي الكسير

(قال الراوي): فلما سمعا كلام العبد فرحا فرحاً شديداً وأعتقا للعبد وأعطوه ألف دينار ولما حضرا إلى الحي أمرا بذبح الذبائح وأولما الولائم وأقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين وأرسلا حالاً يعلما أباهما وعمهما الزير ويبشراهما بذلك وسميا الغلام الأوس والبنت مي وتعاهد الأخان على زواج البنت والغلام إذا كبرا. ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جداً وشكرا الله على هذه النعمة العظيمة وركب الجرو في جمع غفير من قومه وأبطاله وسار جهة أولاده لأنه كان له غاية الاشتياق لمشاهدتهما، ولما اقترب من تلك الديار وبلغ ولديه قدومه خرجا لملاقاته في موكب عظيم وعند وصوله سلما عليه ووقعا على يديه يقبلانها فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما ثم سألاه عن عمهما فقال إنه في خير وعافية وإنه ما زال في خيامه وهو ملازم طعامه مع

مدامه ثم سار إلى المدينة وكان ذلك اليوم أعظم من يوم الزينة ونزل الجرو في القصر الكبير ووقف بخدمته الصغير والكبير والمأمور والأمير وأقام في تلك الديار مدة شهرين كوامل وكان في آخر هذه المدة مرض ابنه تغلب فأقام عشرة أيام في الفراش ومات فحزن عليه الجرو حزناً عظيماً وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احترام ووقار ولما عزم الجرو على الرجوع إلى بلاده استدعى ولده مالك وأوصاه بالرعية وأن يكون عادلاً في حكمه وأن يزوج ابنته مي بالأوس ابن أخيه وبعد ذلك سار وحده في قطع القفار إلى أن وصل إلى أطلاله واجتمع بأهله وعياله وأما الأمير مالك فإنه اعتنى بتربية ابنته وابن أخيه كما أوصاه جناب أبيه حتى كبرا وبلغا درجة الكمال وكان الأوس يركب ظهور الخيل ويتعلم الفروسية مع الفرسان واستمر على ذلك مدة من الزمان حتى صار من صناديد الرجال وشاع ذكره في كل مكان وكانت ابنة عمه من أجمل النساء والرجال وكان الأوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروحين في جسد واحد فلما شاع ذكرها في قبائل الأعراب وتواردت إلى أبيها الخطاب وكان قد سمع بها الصنديد بن الأكوع وهو ابن عم الملك تبع حسان فعشقها على السماع وكان من الملوك العظام فأرسل وزيره ليخطبها من أبيها فلما وصل الوزير وعلم مالك بالخبر فقال والله هو نعم الصهر وبه أنال الفخر على طول الدهر غير أنه لا خفاك أطال الله عمرك وبقاك بأن ابنتي مخطوبة لابن عمها الأوس ونحن الآن مباشرين بأمر العرس فلا يمكنني أن أنقض الكتاب وهذا الذي يمنعني عن إجراء الإيجاب. فقال له الوزير: اكتب لي الجواب فكتب هذه الأبيات:

يقول الفتى مالك على ما جرى له بدمع جرى فوق الخدود صدود
أيا غادياً مني على متن ضامر تسابق لضرب المرهف المبرور
تهدى هداك الله خذ لي رسالتي أعطه مكتوبي تنال سعودي
إذا جيت للصنديد فقل له يأتي على طول الزمان ودود
ومي ترى مخطوبة لابن عمها ومعها تربى والأنام شهود
فحاشى لمثلي أن يخون أقاربه وأفسح زمامي ثم أكبر عنود
ترى الأوس روحي يا أمير ومهجتي وهو عندنا أحلى من المولود
فلو كنت أعطيها لغير ابن عمها لكنت أنت اليوم أولى بالمقصود

ثم إن الوزير أخذ هذا الجواب ورجع إلى عند الصنديد وأعطاه إياه فلما وقف على حقيقة الحال خرج عن دائرة الاعتدال فغير زيه وتنكر وركب جواده وسار إلى تلك الديار وحده وعند وصوله إلى مضارب الأمير مالك لم يجده هناك ولم يكن في الحي إلا النساء والبناء فسأل بعض النساء عن غياب الرجال فقالت: منهم من سار إلى القبائل ليعزموا الناس إلى العرس والفرح ومن ذهب مع الأمير مالك للصيد والقنص ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان وأركز رمحه ووقف على الباب ونادى: هيا يا أصحاب البيت فقد أتاكم ضيف من أبعد مكان. وكانت مي داخل الخيام وحدها فما ردت جواباً وما أبدت خطاباً. ولما أبطأت عليه الجواب وعرف أن الصيوان خالياً من الرجال أنشد يقول:

قال الفتى الغريب الذي شكا ولي قلب من بين الجوانح ذاب
أتيت قاصد مالكاً في حاجة ولي ساعة واقف أنا في الباب
يا أهل هذا البيت أين أميركم وأين مضى من الديار وغاب
يا ربة البيت التي داخل الحمى ما بالكم لا تردوا الجواب

ألا فاخبروني يا بنات بحالكم قلبي غدا من أجلكم مرتاب
إذا كان أهل الحي غابوا جميعهم أما فيكم كريمة ذات حجاب
فتقر ضيفاً قد أتى غريبة وتستر أهاليها مع الغياب
أكيد ما كل النساء تستر الفتى ولا كل من يحوى الردية صاب

(قال الراوي): فلما سمعت مي شعره ونظامه وعرفت قصده ومرامه أخذتها الغيرة والمروءة لتستر عرض أهلها من القيل والقال وأشارت تقول:

تقول فتاة الحي مي التي شكت ألا فاسمع للقول يا نجاب
يا مرحباً بالضيف لما زارنا لك الخير والإكرام والترحاب
انزل مكانك حتى أحضر لك الغدا وتأكل من وادنا وتشرب
أنا بنت مالك راح للصيد والدي مع ابن عمي الأوس والأحباب
انزل حتى يرجعوا رجالنا ويأتوا لنحو الحي بعد غياب
فكم جاء إلينا يا أمير مثالكم خلائق كثيرة ما لهن حساب
نحن نحب الضيف إذا جاء محلنا انزل واجلس جانب الأطناب

(قال الراوي): فلما فرغت من شعرها ونظامها وقع الصنديد في حبها وغرامها ورفع ستار الخيمة بسنان رمحه فوجد صبية بديعة الجمال فزاد به الوجد والبلبال فصاحت عليه من خلف الستار وقالت: علامك تنظر بنات الملوك يا غدار ثم ردت منديلها على وجهها وقالت له: لا شك أنك قليل الحياء كامخ فإن كنت ضيفاً كما تقول فانزل كي آتيك بالغداء وإلا فما هذه الوقاحة. ثم قالت لجاريتها: اطلعي افرشي له حتى يجلس ويتغدى لبينما يأتي أبي من البرية. فخرجت الجارية وسألته كي ينزل في الصيوان. فقال لها: إنه عيب علي أن أنزل عند الحريم وأنا سيد عظيم لئلا أدعى بكامخ وهذا من أعظم القبائح وما أتيت إلى هذه

الديار إلا لأمر ضروري هذا فلم يسمع لها كلام وقال: لا بد من أخذك إلى الأطلال وهناك أتزوج بك بالحلال لأني أتيت من بلاد بعيدة لأجل هذه الغاية الوحيدة وقد نلت مرادي وحصلت على مسرة فؤادي. ثم إنه قام تلك الليلة في ذلك المكان وهو مسرور فرحان ولما كان الصباح ركب ظهر الحصان وأردفها خلفه وصار يقطع القفار ويوصل سير الليل بسير النهار حتى وصل الديار، ولما سمعت أكابر قومه بقدومه ظافراً غانماً اجتمعوا إليه وهنأوه بالسلامة وسألوه عن سفرته وما جرى له في غربته، فقال: إني عند وصولي إلى تلك الأطلال هجمت على الفرسان والأبطال ومددت أكثرهم على بساط الرمال وفعلت فعالاً تذكر على طول الأجيال وقتلت الأمير مالك وابن أخيه وأتيت بالعروس إلى هنا وقد بلغت غاية المنى. فلما سمعت مي منه هذا الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام فنهضت على الأقدام وقالت له أمام الأعيان: لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الإله الديان لو كان أبي وابن عمي حاضران لما كنت رجعت سالماً إلى أوطانك ولا اجتمعت بأهلك وخلانك ولكنك خطفتني بالاحتيال وهربت في الحال قبل أن يدركك الرجال ويحل بك الوبال. ثم إنها بعد هذا الكلام بكت بدمع سجام ولما سمع الحاضرون فحوى كلامها خافوا من العواقب وعلموا بأن كلام الصنديد ليس له صحة فهو في حديثه كاذب وأما الصنديد فإنه اغتاظ من هذا الكلام فنهض ولطمها على وجهها وقال: هكذا تتكلمين يا ابنة اللئام أمام السادات الكرام ثم سل سيفه وغمده وأراد أن يعدمها الحياة فعند ذلك وثب الوزير وباقيْ الأمراء بالعجل وردوه عن ذلك العمل وقالوا له: أنت أمير أتجعل عقلك كعقل النسوان فما تقول عنك ملوك الممالك

إذا سمعت بذلك، وما زالوا يتوسلون بالكلام حتى لان وكان له سجان أقسى من الصوان فاستدعاه إليه فحضر وكان اسمه عمران بن الأزور فقال: خذ هذه الملعونة إلى بيتك وسلمها إلى زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها العذاب الشديد وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات في النهار وتطعمها خمس أرغفة من الشعير. فقال: يا مولاي إن هذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولا تستاهل غير الإعزاز والإكرام وهي كأنها البدر التمام فقال لها: كيف العمل وما نحن إلا عبيد الملك الصنديد فعند ذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية وألبستها ثوباً من شعر الخنزير وأرادت أن تضربها بالسياط على قدميها فوقعت على رجليها وجعلت تبكي وتثني عليها ثم أنشدت من فؤاد متبول:

بـالـلـه أن تـرثـي إلـى أحـوالـي	فـالـدهـر فـرق صـحـبـتـي وعـيـالـي
يـا وحـدتـي يـا ذلـتـي يـا غـربـتـي	قـد صـرت بـعـد الـعـز بـالأغـلال
قـد كـنـا فـي جـاه ورفـعـة مـنـصـب	والـلـه ربـي عـالـم الأحـوال
فـتـرفـقـي هـذا الـنـهـار بـحـالـتـي	فـلـعـل ربـي يـسـتـجـيـب الـحـال
إنـي كـريـمـة مـن أكـابـر مـعـشـر	فـاقـوا الـورى بـالـجـاه والإفـضـال
ويـعـيـدنـي بـعـد الـعـنـاء إلـى الـوطـن	وأرى جـمـيـع الأهـل والإخـوان
ولـهـم وقـائـع فـي الـبـلاد جـمـيـعـهـا	بـيـن الـمـلـوك وزمـرة الأبـطـال

(قال الراوي): فلما فرغت من شعرها ونظامها وقالت لها: قري عيناً وطيبي قلباً سأصنع معروفاً لوجه الله تعالى. ثم إنها جاءت بجلد جاموس يابس فصلته ثوباً وألبستها إياه من تحت الثياب وقالت إني متى ضربتك فإنك لا تشعرين بألم الضرب وما قصدت بذلك إلا ليسمع الملك صوت الضرب وأنت تصيحين وتستغيثين وأنا أقدم لك ما

تحتاجين إليه من المأكل والمشرب ومتى دخل الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة بال إلى أن يأتي الله بالفرج. فشكرتها مي على معروفها ودعت لها بطول العمر وأوعدتها بالجميل والخير. هذا ا كان من مي وما جرى لها، وأما ما كان من أبيها فإنه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح والبكاء فسأل عن ذلك فأخبرته وزوجته بواقعة الحال فغاب عن الصواب من شدة الغيظ، وأما الأوس ابن عم الصبية فإنه غمي عليه لأنه كان يحبها محبة عظيمة ولما أفاق من غشوته أنشد يقول:

يقول الأوس ابن تغلب قصيد	ألا يا مي من هذا دهاك
أتاك اللمص في غيبة أبيك	ولم يعلم بمن يسعى وراك
ألا يا بنت عمي لو تدري بي	على فقدك أنا محزون باكي
ترى في أي أرض قد حللت	فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي أن أغزو دياره بالعجل	وأقتله وأفرح في لقاك
وأبذل كل مجهودي لأجلك	وروحي بعد ذلك هي فداك
لما قال الفتى الأوس بن تغلب	فقلبي قد تعلق في هواك

(قال الراوي): فلما فرغ الأوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشياً عليه وبقي طول ذلك الليل في هم وغم وقلق شديد ما عليه من مزيد فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له طيب قلبك يا ولدي فما يصلح الحزن إلا إلى النساء فاصبر لبينما نرسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعد ذلك نسير إلى دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله. فقال الأوس: من يذهب غيري فوالله لا سرت إلا وحدي ولا أريد رفيق ولا معين سوى رب العالمين. ثم نهض فاعتد جلاده وركب ظهر جواده وودعهم

وسار وجد في قطع القفار ودموعه تجري على خديه كالأنهار وهو لا يدري إلى أين يذهب وإلى أي حلة يقصد من قبائل العرب إلى أن وصل إلى وادٍ عميق ضيق الطريق كثير الأشجار والوحش والأحجار فبينما هو يتأمل ذلك المكان وإذا قد ظهر عليه أحد الفرسان وهو بالسلاح الكامل والفروسية عليه علائم ودلائم فلما رأى الأوس منفرداً وحده مال إليه وقصده وقال له: انزل يا جبان عن ظهر الحصان واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك في هذه الهضاب قبل أن أسقيك كأس العطب فأنا جمرة بن غمرة فارس العرب.

فلما سمع الأوس هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وهجم عليه في الحال وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه جمرة في الحال والتحما في ساحة المجال واشتد بينهما القتال وتجاولا ساعة من الزمان وهما في ضراب وطعان تقشعر منه الأبدان فاختلفا بينهما طعنتين قاتلتين وكان السابق الأوس بن تغلب فجادت في صدره وخرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً فأخذ عدته وجواده وجد في المسير وهو يقطع البراري والآكام مدة خمسة أيام واتفق في اليوم الخامس أنه التقى بفارس وهو يجد في قطع القفار كالسهم الطيار فتقدم إليه وسلم عليه وقال له: إلى أين سائر وإلى من تنسب من القبائل والعشائر؟ فقال: إنني من بني عبس وعدنان أصحاب الفضل والإحسان وإني سائر إلى ديار بني عامر لأستدعي حامينا عنتر فارس الخيل لأنه سار من عشرة أيام ليحضر وليمة دعاه إليها عامر بن الطفيل وفي غيبته غزانا عمرو ابن معد يكرب في خمسة آلاف فارس فحاربنا محاربة شديدة

وجرى بيننا وبينه وقائع عديدة فأرسلني مولاي زهير لأستدعيه للحضور وقبل أن يظفر عمر المذكور. فقال الأوس وقد تعجب: ومن هو عنتر بن شديد فارس الصدام الذي اشتهر ذكره في هذه الأيام بطعن الرمح وبضرب الحسام وقهر كبار الجبابرة وحارب الملوك والأكاسرة والقياصرة وافتخر على الأبطال والفرسان في ساحة الميدان. فلما سمع الأوس هذا الخبر انبهر ثم ودعه وجد في قطع البر الأقفر وما زال يقطع البراري والآكام مدة سبعة أيام حتى أشرف على جماعة من العبيد ترعى الأغنام فحياهم بالسلام وأخذ يسألهم بهذا الشعر والنظام:

يقول الفتى المضني الفائض ما به	فدمعي جرى فوق الخدود سائح
ألا يا عبيد الخير بالله اشفعوا	لصب بعيد الدار ولهان نازح
فجيع وجيع مستهام ملوع	تركه البين مضنى كثير الجرايح
لقد ضاع لي حرة عفيفة من الحنا	فهل من يبشر بها يا فوالح
ويخبرني لأي البلاد توجهت	من أجلها ناري تزيد اللقايح
لقد أحرقت قلبي ولبي ومهجتي	وكل عظامي أوثقتهم جرايح

(قال الراوي): فلما فرغ من كلامه تقدم إليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له: اعلم يا غلام أنه من برهة عشرة أيام سبى أميرنا الصنديد بنت اسمها مي لا يوجد أجمل منها في نساء هذا الحي فأراد أن يتزوجها فامتنعت عنه فلم تميل إليه فقيدها بقيود من حديد وهو كل يوم يعذبها عذاب شديد فعسى تكون الحرة التي ذكرتها في نظمك أفرج الله همك وغمك فلما سمع الأوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان وأوعده بالجميل والإحسان فبينما

هو بالحديث والكلام وإذا بسعد ابن أخت الصنديد قد أشرف في ذلك الوقت ليتفقد المراعي فنظر الأوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال: هذا ابن عم الصبية مي التي عند خالك الصنديد قد جاء ليكشف أخبارها ويرجع بها إلى ديارها فلما سمع هذا الكلام رجع إلى عند خاله وأعلمه بما سمع ورأى وأشار إليه يقول:

قال سعد قد أتيتك عارا ... يا خال مني فاسمع الأخبارا
البنت التي غربتها من أهلها ... من خلفها فارس أتاك جهارا
يا خال فارس في اللقا مجرب ... وعيونه يا خال تقدح نارا
إن كان راقت لك ليالي الصفا ... فبصفوها تأتي لك الأكدارا
قد جاء إلى عند العبيد يسأل ... أنبوه فجاء كالأسد هدارا
لما سمعت أتيت نحوك عاجل ... هذا الذي يا خال تم وصارا

(قال الراوي): فلما فرغ سعد من شعره ونظامه وفهم الصنديد فحوى كلامه قال له فارس واحد؟ قال: نعم أيها السيد الماجد. فشتمه خاله وقال ارجع وخذ روحه من بين جنبيه فإنه لا يليق بي أن أركب لقتال صعلوك من صعاليك العرب فخرج سعد من عند خاله وقصد الأوس.

فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليه فالتقاه كالأسد وضربه بالحسام المهند فألقاه على الأرض قتيلاً فأخذ سلبه وثيابه ولما بلغ خاله الخبر طار من عينيه الشرر فركب ظهر جواده واعتد بعدة جلاده وقصد الأوس حتى التقى به وانطبق عليه كليث الآجام وأخذ معه في القتال والكفاح ولم تكن إلا ساعة حتى أثخنه بالجراح فولى وطلب لنفسه الهرب فتبعه الأوس مثل السرحان حتى وصل إلى الصيوان واحتمى عند النسوان فلما

دخل على الحريم قالت له زوجته سعدا: علامك داخل وأنت مرعوب وكل هذا لأجل الإبنة التي خطفتها وما نلت المرغوب. فقالت: إنك تستحق أكثر من ذلك ثم وبخته بالكلام وقالت له: أنت تدعي الفروسية على كل واحد وتهرب من أمام أمرد هذا والأوس يصيح عليه ويقول: اخرج يا لئيم من بين الحريم حتى أجازيك على تلك الفعال يا غدار يا محتال. فخاف الصنديد وقال لزوجته سعدا: أعطيه ابنة عمه واكفينا همنا وهمه فخرجت زوجته إليه وقبلته وطلبت منه العفو والسماح فأعطاهم الأمان فجاءوا له بابنة عمه مي من بعد أن ألبسوها الثياب الفاخرة وذبحوا لها الذبائح وقدموا لها الأطعمة المتكاثرة ولما اجتمع بها زال عن قلبه الكدر من كثرة فرحه أخذ يسكب العبر وهكذا فعلت مي وكان ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد.

(قال الراوي): فباتا تلك الليلة في الحلة وعند الصباح أركب مي في هودج وسار معه جماعة من العبيد وتوجه قاصداً دياره ولما اقترب من بلاده أرسل يبشر عمه الأمير مالك بقدومه وشاع الخبر في الحي فخرجت النساء والبنات وأكابر السادات ولما اجتمعوا ببعضهم البعض نزل الأمير مالك فسلم على الأوس وابنته وشكر ابن أخيه على أفعاله وعند وصوله إلى الخيام حدثهم بحديث عنتر وما سمع عنه من الخبر فقال عمه والله سمعنا بذكره وأنه من أفرس فرسان عصره. وبعد ذلك ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم ثم زفوا الأوس على ابنة عمه فكانت ليلة من أعظم الليالي حضرها جمهور من السادات والموالي فزادت أفراح الأوس بتلك العروس وحظي بذلك الحسن والجمال وعاش معها بأرغد

عيش وأحسن حال. وبعد ذلك وضعت له غلاماً سماه مالك وله حديث طويل، فاتفق بعد عشرة أيام أن مالك ضعف ضعفاً شديداً فمات فحزن الأوس عليه ودفنه بالاحترام والوقار وبكت عليه الكبار والصغار وكان موصوفاً باللطف والإيناس ومحبوباً من جميع الناس وأرسل الأوس وأعلم جده بذلك الخبر فحزن وتكدر فقالت اخته اليمامة: أرسل يا أخي وأحضر ابن عمك الأوس مع أهله ليجتمع شملنا بشمله فأجابها إلى ذلك وفي الحال أرسل رجلاً من بني عمه ليحكم مكانه فجاء الأوس مع أهله وسكن عند الجرو جده وراق لهما الزمان. وأما ما كان من البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فإنه كان قد أخناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب على أكل الطعام وشرب المدام وكان لا ينام إلا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زال على تلك الحال حتى برز له أسنان جدد وصار عقله مثل عقل الولد وكانت بنات أخيه تخدمه وتداويه فاجتمع يوماً بالجرو وقال له: يا ابن أخي قد ضاقت أخلاقي من الوحدة والانفراد فأريد منك أن ترسلني مع بعض الأتباع للتنزه في البلاد فأجابه إلى ما طلب وأركبه في هودج وأعطاه عبدان برسم الخدمة وجميع ما يحتاج إليه من لوازم السفر فودعه المهلهل وما زال يجول حتى اقترب من بلاد الصعيد وكان العبدان قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من التعب أشد الضيق فصمما على قتله وإعدامه بالكلية وإنما يقولان لأهله قد أدركته المنية فعرف الزير منهما فقال قد دنى حمامي وليس إلا القبر أمامي فإذا أدركتني منيتي أريد منكما أن تبلغا أهلي وصيتي قالا وما هي وصيتك فعاهدهما على حفظها

وتأييدها فحلفا له بأعظم الأقسام بأنهما يبلغونها بالكمال والتمام فقال إذا وصلتم الحي فاقرآ أهلي مني السلام وأنشدوهم هذا البيت وقولا لهم إني في القبر قد اختفيت.

من مبلغ الأقوام أن مهلهلاً   لله دركما ودر أبيكما

وكرره عليهما حتى حفظاه ولما دخل الليل ذبحاه ودفناه تحت التراب ورجعا إلى ديارهما ودخلا على سيدهما الجرو وأعلماه بموت عمه الزير فبكا بكاءً شديداً ومن حضر ثم إن العبدان اقتربا من الجرو وأنشداه البيت المذكور.

فلما سمع الجرو هذا استغربه حيث لا معنى له فاستدعى أخته اليمامة وكانت من أذكى نساء العرب وعلمها عمها وأنشدها ذلك البيت فلطمت على وجهها وبكت وقالت: إن عمي لا يقول أبيات ناقصة بل أراد أن يقول:

من مبلغ الأقوام أن مهلهلاً   أضحى قتيل الفلاة مجندلا

لله دركما ودر أبيكما   لا يبرح العبدان حتى يقتلا

ثم إنهما قبضا على العبدين وألقوهما تحت العذاب والضرب الشديد إلى أن أقرا بأنهما قتلاه ودفناه فقتلهما الجرو في الحال. وهكذا انتهت حياة الزير وقد أخذ ثأره في حياته وبعد مماته. وبعد وفاة الزير وضعت امرأة الأوس غلاماً فسموه عامراً وعندما بلغ سن الرجولية تزوج بامرأة من أشراف العرب فولدت له في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو فدعاه هلال وهو جد بني هلال وكان من أعقل العرب ولما كبر الأمير هلال تزوج بامرأة ذات حسن وجمال فولدت له غلاماً دعاه بالمنذر

واتفق أن هلالاً زار مكة في بعض السنين في أربعمائة فارس كرار وكان وقتئذٍ ظهور النبي المختار وعند وصوله ضرب الخيام وطلب هو ورجاله حول البيت الحرام ثم تشرف بمقابلة النبي المشار إليه وقبله بين عينيه فأمره النبي أن ينزل في وادي العباس وكان النبي (ص) في تلك الأيام يحارب بعض العشائر فعاونه الأمير هلال وأمده بالعساكر وقاتل معه القوم في ذلك اليوم وكانت فاطمة الزهراء راكبة على هودجها فلما رأت هول القتال زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال فشردتها في البراري والفلوات وعند رجوعها دعت على الذي كان السبب في البلاء والشتات فقال لها أبوها إدعِ لهم بالانتصار فإنهم بني هلال الأخيار وهم لنا جملة الأحباب والأنصار، فنفذت فيهم دعوتها بالتشتيت والنصر على طول الدهر.



هذا الكتاب

وهي قصة بديعة جرى فيها من الحروب العجيبة والوقائع المهولة المريعة، وأشعار العرب أهل الفضل والأدب، وما كان من كليب وحسان اليماني وجساس بن مرة، وما وقع بينهم من الحروب والأهوال.

